

الإعجاز اللغوي

للقرآن

إعداد

نبيل عبدالسلام هارون

## الباب الأول الإعجاز اللغوي للقرآن

### الفصل الأول القرآن من المتكلم؟

#### تقديم

القرآن معجزة الله الخالدة، التي أيد بها الله تعالى رسوله خاتم النبيين محمدا ﷺ، وتعهده بحفظها إلى قيام الساعة؛ لتبقى برهانا حيا على صدق تنزيله من رب العالمين. برهانا يخاطب كل العقول ويناسب كل الأفهام، كلا حسب ما وُهب من فطنة وما اكتسب من علم. يشعر بجلاله وطلاوته عامة الناس وخاصتهم، ويعجز الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، ويبهر العلماء والحكماء بسمو منطقته ودقة إشاراته العلمية والتاريخية. إلا أن ثمة قاسما مشتركا يجمع كل من أصغى بقلبه وعقله فأمن: هو ذلك الشعور بجلال الربوبية في الخطاب القرآني، دون أن يملك المرء أن يصفه أو يحدد مصدره.

وهذه محاولة لاستكناه مكان جلال الربوبية في أساليب الخطاب القرآني، والتي نحسب ونأمل أن تكون بإذن الله مدخلا جليا وأساسا قويا لدعوة الناس جميعا على اختلاف لغاتهم وثقافتهم، دون ما حاجة لخوض في جدل فكري أو تحليل علمي أو تحقيق تاريخي، مما لا يملك مفاتحه إلا المتخصصون في هذا أو ذاك.

### 1/1 عم يتساءلون؟

عندما ينطلق كل منا بهذه الرسالة = التي حملنا بها الله ورسوله - لندعو بها كائنا من كان، ملحدًا أو يوديًا، أو هندوكيا أو نصرانيا، أو يهوديا أو علمانيا؛ كلا بلغته التي يفهمها، وعلى قدر عقله وعلمه، وبعد

## الإعجاز اللغوي للقرآن

أن نعرض عليه قبسا من الجوانب المشرقة لهذا الدين، وروعة كتابه، وحكمة تشريعه، وعظمة رسوله، وخيرية أمته؛ فإن أول ما قد يتبادر منه – إن استمع إليك – أن يسألك أو يتساءل في نفسه: "ما الذي يثبت أن ذلك الهدي القويم وذلك الكلم الطيب الذي تسوقه إليه، أي القرآن الكريم، هو كلام الله كما تؤمنون، وأنه قد أوحى به إلى نبيكم محمد، وليس كلاما ألفه تأليفا، ثم جهر به في قومه؟"

هنا نجيب السائل بما كان ﷺ يجيب به المشركين عندما كانوا يطلبون آية على أن هذا الخطاب، الذي عرفوا له قدره من السمو والرفعة، إنما هو كلام الله حقا. كانوا يطلبون آية وبرهانا، فكانت الآية والبرهان هي القرآن ذاته، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت 51]

ذلك لمن أصغى بقلبه وتدبر بعقله:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد 24]

ثم تحداهم أن يأتوا بمثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ \* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور 33-34]

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء 88]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود 13]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس 38]

وقد كان؛ فقد سلموا بعجزهم وأخبتوا إلى دعوة الحق، ودخلوا في دين الله أفواجا: إلا متكبر معاند، أو ضال جاحد قد أصم أذنه وعطل عقله، أو أحبار ورهبان يخشون ضياع مالهم وسلطانهم. فقد استشعر المشركون بسليقتهم اللغوية – ولأول وهلة – أن هذا القرآن ليس بقول بشر – وقد خبروا كلام البشر وهم أهل الفصاحة والبيان. لم يكن الأمر لهم مجرد إعجاب بفصاحة القرآن وجزالة بيانه – وهو أيما جزل وفصيح، ولا مجرد طرب لسماعه وتذوق لحلاوته – وما أحلاه وما أطربه للأذن. فالإعجاب والطرب لا ينشئان وحدهما إيماننا بآية يقينا، ولا يتجاوزان بالمرء حدود الرضا والإمتاع الوقتي الذي لا يلبث أن يزول. وإنما أدركوا بسليقتهم اللغوية أن أسلوب القرآن وسياق الخطاب فيه هو النبي والمعلن عن مصدره العلوي، إذ يعلن الله فيه عن نفسه بصيغ المتكلم (مثل: نحن، وإنا، وسنريهم ... إلخ)، ويتكرر ذلك تباعا على امتداد القرآن، وفي الموضع والمقام المناسب لجلال المتكلم، كما يتوجه الخطاب مرارا من الله إلى الرسول ﷺ مباشرة (بمثل النداء: يا أيها النبي، أو: قل كذا وكذا، أو غير ذلك من الأساليب). فأسلوب وسياق الخطاب في القرآن يثبت أنه ليس كلاما صادرا "من" النبي ﷺ بل هو صادر "إليه من خارجه"، يخاطبه ويخاطب البشر كلهم من عل، ولا دخل للرسول ولا لغيره من البشر كائنا من كان فيه.

وبمثل هذا المنطق المستقيم المباشر، منطلق استشعار مصدر هذا القرآن من فحواه وأسلوبه وسياق خطابه، كما سنفصل في هذه الرسالة، دخلت شعوب الأرض لا عربا فحسب، بل شعوبا عجا تنطق بشتي اللغات، دخلت في دين الله أفواجا حين أدركت رويدا رويدا أن هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، يستوي في ذلك عربي تنطق روعة لغة القرآن وإعجاز بيانه، أو أعجمي لم يتذوق شيئا من ذلك.



## 2/1 منهج الاستدلال

وتعالوا الآن نفصل بعض الشيء: كيف كان أسلوب الخطاب في القرآن مدخلا وبرهانا للإيمان بأنه كلام رب العالمين؟ سواء بالنظر في نصه العربي أو فيما يفهم من معناه بغيره من اللغات؟

هـب أن إنسانا عثر على كتاب منزوعا غلافه، أو مخطوط قديم مجهولا مؤلفه، ثم حاول أن يتبين صاحبه ويتحقق من مصدره، فإنه سيقرب النظر فيه ليستشرف ذلك من سياق الكتاب وموضوعه، ومجرى الخطاب فيه وأسلوبه. ثم قد يضاهيه بما يناظره من كتابات الأقدمين والمعاصرين؛ علّه يهتدي إلى: مَنْ كتب الكتاب؟ وإلى مَنْ كتبه؟ ومناسبة ومكان وزمان تأليفه. وأسلوب المؤلف مرآة تعكس ذاته وقدره وعلمه وخصاله، وكما أن بصمات الأصابع، ثم الشفرة الوراثية، تكشف وتحدد هوية كل إنسان؛ فكذلك الأسلوب ينبئ عن صاحبه ويتعذر على غيره تقليده، وهيئات أن ينتحل كاتب مكان غيره فيصطنع كلاما وخطابا ينسبه إليه دون أن يفتضح أمره لدى القراء. ولا يتطلب الأمر من القارئ إلا القليل من الفطنة، دون الغوص في أسرار التراكيب اللغوية أو التعمق في التحليل النفسي اللغوي. فما بالك باصطناع كلام وخطاب الله القدير، خالق البشر العليم؟

ثم تعالوا سويا نتناول النص القرآني ابتداءً بمنهج مماثل، ودون الحاجة إلى التزود بالكثير من الأدوات اللغوية، أو المعارف الكونية والتاريخية، ودون الغوص في تفسيره وتحليل بلاغته وإعجاز بيانه وتفصيل موضوعاته؛ لننتبين ثم نشبث أن طبيعة النص القرآني في حد ذاته – من ناحية سياقه وأسلوبه ومجرى خطابه – يقطع بأن المتحدث بهذا النص مصدر خارجي مستقل عن مبلغه ﷺ، وخارجي مستقل عن كل البشر المُخاطبين؛ ومن ثم نسلم تسليمًا أن ذلك الكلم الطيب – من ألفه إلى يائه – إنما انبثق من مشكاة الخالق العليم الفرد الصمد سبحانه وتعالى.

## 3/1 توجيه الخطاب في القرآن

إن القارئ المتدبر المنتبه، الذي يقرأ القرآن على مكث، لا يفوته التنوع والتغير المستمر في أسلوب توجيه الخطاب؛ فالقرآن لا يجري على نسق واحد من أسلوب الخطاب؛ بل يتبدل أسلوب خطابه أولاً بأول تبعاً للسياق، بما يلائم - بمنتهى الدقة - مقتضى المعنى وطبيعة المخاطبين والتأثير المراد. فهو إما:

1- خطاب من الله بصيغة المتكلم، باستخدام ضمائر المتكلم المباشرة:

"نحن"، كما في قوله:  
﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾  
[الإنسان 28]

أو: "أنا"، كما في قوله:  
﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾  
[الحجر 49]

أو الضمائر غير المباشرة، كضمير الألف اللينة:  
- في موضع الفاعل، كما في قوله:  
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر 9]

- أو في موضع المضاف إليه، كما في قوله:  
﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر 50]

أو ضمير الياء في موضع المضاف إليه (عبادي)، أو الفاعل (فإني) كما في قوله تعالى:  
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة 186]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

### 2- خطاب عن الله بصيغة الغيبة:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة 33]

### 3- خطاب موجه من الله إلى النبي بلفظ مباشر،

كالنداء "يا أيها":

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب 45-46]

أو بلفظ "قل"، أو بغيره من الأساليب الإنشائية:

﴿قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام 162]

أو بضمير المخاطب، كالتاء:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال 17]

أو الكاف:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى 3]

### 4- خطاب موجه إلى جماعات بعينها، كالمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال 27]

أو أهل الكتاب:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران 71]

أو بني إسرائيل:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة 40]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

أو الناس جميعا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات 13]

أو الإنس والجن:

﴿يَا مَعْشَرَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن 33]

5- كلام يُروى على لسان أنبياء يتكلمون به:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة 126]

أو على لسان غيرهم من البشر:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصاص 38]

أو غيرهم من المخلوقات:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل 18]

6- كلام عام بأسلوب الغيبة في سائر الكتاب:

إما أن يروي أحداثا، كما في القصص القرآني:  
﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف 15]

أو يصف نفوسا وأفعالا:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح 29]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خِشْبٌ

## الإعجاز اللغوي للقرآن

مُسَلَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوا هُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿[المنافقون 4]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف 57]

أو يقرر حقائق:  
﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف 46]

أو يثبت قواعد دنيوية أو أخروية:  
﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب 62]  
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة 7-8]

أو يقرر أحكاما:  
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة 38]

أو يشير إلى معارف ومفاهيم:  
﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل 15]

## 4/1 مقاصد تنوع أساليب الخطاب في القرآن

كما أسلفنا، يتغير أسلوب القرآن في الخطاب من موضع لآخر في السياق. ولا يحتاج المرء لكثير تدبر ليلحظ أن ذلك التغير لا يجري عبثاً؛ بل إنه يأتي دائماً بحيث يعبر - بأقصى درجات الدقة وبحساسية بالغة - عن تغير المعنى المراد: تبعا للمواقف والموضوعات والمخاطبين، وبما

## الإعجاز اللغوي للقرآن

يليق بجلال ربوبية الله تعالى، وبما يناسب قدر وحال المخاطب أو المخاطبين:

1- الخطاب المباشر من الله سبحانه وتعالى بضمير المتكلم "نحن" أو "أنا"، أو ضمائر المتكلم: كنون الفعل (نفعل)، وكالآلف اللينة (نا) أو الياء (ني) - كلاهما ضميران للمتكلم الفاعل أو المضاف إليه - كما سنرى في الشواهد. ولا يكون الخطاب بهذه الصيغ إلا تعبيراً عن جلال الربوبية في تقريره:

لنعمه على خلقه:  
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء 70]

أو لقضاء فاصل:  
﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء 4]

أو لحكم قاطع:  
﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة 32]

أو لو عد نافذ:  
﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر 51]

أو لو عيد منذر:  
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء 16]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

أو للقدرة المطلقة في الخلق والبعث:  
﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق 43]

أو لغير ذلك من مظاهر وأمر ربوبيته سبحانه وتعالى.

### 2- ذكر الله تعالى باسم الجلالة أو بصفاته أو بضمير

الغائب "هو"؛ وذلك في مجالات الوصف والتعريف، والإخبار عنه والتذكير به وما إلى ذلك:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة 255]

﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن 1-2]

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾  
[الحشر 22]

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة 111]

﴿وَأَنَّا كُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم 34]

وفي هذه الأمثلة، وغيرها من المواضع التي يذكر فيها الله بصيغ الغيبة، تعبير وإشعار أيما إشعار بجلال الربوبية؛ فإنه ينتزه جل شأنه أن يتحدث بضمير المتكلم عن آلائه وصفاته، وعجائب قدرته وأفعاله، أو أن يتبسّط في الخطاب يقول "فعلت كذا" أو "قلت كذا"؛ إذ لو صدر الخطاب في مثل هذه الأمور بضمائر المتكلم لتدنى بمكانة القائل نحو مكانة المخاطبين، وحاشا لله العلي الكبير!

## الإعجاز اللغوي للقرآن

خذ لذلك مثلاً لو قلبَ الخطاب في الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة 255]، إلى صيغة المتكلم: أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم، لا تأخذني سنة ولا نوم، من ذا الذي يشفع عندي إلا بإذني ...!

أو قلبَ الخطاب في الآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور 36]، إلى صيغة المتكلم أيضاً: أنا نور السماوات والأرض، مثل نوري كمشكاة فيها مصباح ...! لترى كيف يتضاءل جلال الخطاب بالخالق ويتبسط بالقول فيه تجاه مخلوقه.

وبالمقابل أيضاً لا يختلف الأمر لو أعدنا الكرة على نماذج من عبارات الخطاب المباشر من الله بضمائر المتكلم، فقلبت إلى صيغة الغيبة. فمثلاً لو قلبت الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر 9]، إلى: إن الله نزل الذكر، وإنه له لحافظ! أو قلبت آية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر 21]، إلى: لو أنزل الله هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشيته ...! ألا يزيدك الفرق يقيناً بما أسلفناه وبيناه؟

ثم طبق ذلك إن شئت على أي مثل مما أوردناه من أمثلة في هذا المبحث، أو طبقه على أي عبارة في القرآن ذكر الله فيها بصيغة أو ضمير الغائب، حين يقلب الخطاب فيها إلى صيغة المتكلم، لتدرك وتتيقن كم هي سعة البون بين كلام الله وكلام البشر؟

### 3- الخطاب من الله إلى الرسول:

تذكيراً بآلاء الله وقدرته:

﴿الَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة 107]



## الإعجاز اللغوي للقرآن

أو بأمور الغيب والآخره:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام 93]

أو تحديدا لدور الرسول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب 45]

أو تثبيتا له وشدا لأزره:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ \* وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ \* وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى 3- 5]

أو تشريفا له وتكريما:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء 41]

أو تذكيرا بنعم الله عليه:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ \* وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ \* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح 1]

أو أمرا إليه خاصة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم 1]

أو إلى المؤمنين من خلاله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق 1]

أو جوابا لسؤال المؤمنين أو غيرهم:

## الإعجاز اللغوي للقرآن

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى  
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾  
[البقرة 215]

أو تسجيلاً وتذكيراً لأحداث:  
﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾  
[آل عمران 121]

أو كشفاً لضلالات الكافرين ومكرهم:  
﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ  
هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ  
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة 120]

أو رداً على أباطيلهم:  
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ  
شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً  
وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة 17]

أو توجيهها لأسلوب التعامل معهم:  
﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا  
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ  
عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران 61]

وفي هذه المواضع كلها – وبالإضافة إلى ما فصلنا في الفصل  
الثاني (الرسول والوحي) - يبرز دور الرسول وموقفه من الخطاب  
القرآني، في أنه لا يخرج عن كونه متلقياً للوحي، مستقلاً عن مصدره،  
مبلغاً له بحذافيره لا يزيد فيه ولا ينقص.

4- سائر أنواع الكلام: التي لا تتعلق بمبحثنا هذا؛ من سرد لقصص وأخبار، وحقائق وآيات، وحكم وأحكام، ووعد ووعيد وما إلى ذلك في سائر النص القرآني.

## 5/1 تحول الأساليب (الالتفات) في القرآن

إن من أجلى ما يتميز به كلام الله في القرآن عن كلام سائر البشر هو ذلك التنوع والتغير المتوالي في وجهة الخطاب وأسلوب إنشائه عبر السياق القرآني – من آية لآية، أو من عبارة لعبارة بنفس الآية، وهو ما يطلق عليه: "الالتفات".

ويعرف الالتفات لغة بأنه "تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر". وهو من أسمى صور البلاغة، وأكثرها تنبيها للقارئ، ومن أقوى دلائل الإعجاز، إن لم يكن أقواها، كما سيتبين لنا بعد قليل.

وللالتفات في القرآن صور متعددة، يعيننا منها في هذا المقام خمس:

1- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المباشر بصيغ المتكلم:  
﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾  
[النمل 82]  
﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾  
[النحل 41]  
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ﴾ [الشورى 20]

2- الالتفات من صيغة المتكلم إلى صيغة الغيبة:  
﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج 16]  
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت 40]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

3- الالتفات من صيغة المتكلم إلى مخاطبة الرسول:  
﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ  
وَعِيدَهُ﴾ [ق 45]  
﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾  
[الإسراء 106]

4- الالتفات من صيغة خطاب الرسول إلى صيغة المتكلم:  
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾  
[الأنعام ١١٠]  
﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون 96]

5- الالتفات من صيغة الغيبة إلى خطاب الرسول:  
﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ  
وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه 114]  
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ  
فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان 32]

وهذه الشواهد التي أوردناها ما هي إلا نماذج أو عينات لقليل من بحر  
يتدفق ببراعة الالتفات في القرآن، والذي لا تكاد تخلو من ألوانه  
وعجائبه صفحة من المصحف أو بضع آيات منه. وهو أيضا من أروع  
دلائل الإعجاز البياني؛ من أروعها لأنه يثبت حياة متدفقة في الكتاب كله،  
باعثها خالق الكون ومُنزل القرآن.

## 6/1 النتيجة: ما هو بقول بشر

لذا فإن القارئ المنصف، والمتتبع الواعي لهذا التنوع والتبدل  
المطرد للخطاب بين دفتي الكتاب العزيز لا يملك إلا التسليم بأن الذي  
يدير هذا الخطاب كله ويصدر عنه:  
1- هو مصدر خارج مستقل عن ذات الرسول المبلغ.  
2- خارج مستقل عن كل العالمين المخاطبين.

### الإعجاز اللغوي للقرآن

- 3- جليل يوجه الخطاب دوما بما يناسب قدره وجلاله، وينأى به عما لا يليق به.
- 4- حكيم عليم بطبيعة المخاطبين وحالهم، وبالخطاب الأمثل لهدايتهم والتأثير عليهم.

ولا يحتاج قارئ القرآن لأكثر من التمهّل والانتباه، وقليل من التدبر لمسار الخطاب وتغييره من موضع لآخر؛ حتى يدرك ويلح عليه اليقين: أن هذا النص إنما هو كلام الله إلى كل خلقه، يعلن فيه عن نفسه ويتجلى بشتى أساليب الخطاب: مخاطبا الرسول، ومخاطبا فئات من الناس، ومخاطبا الناس جميعا. إذ ليس في مقدور بشر أن يتصنع كلاما – بهذا الطول وهذا التنوع في السياق وتوجيه الخطاب بالالتفات (التغيير في توجيه الخطاب) المتكرر؛ بحيث يبدو وكأنه صادر (في كل لفظ وعبرة منه) من الله كما في القرآن، ولا بما يناسب قدره وينزهه عما لا يليق به كما في القرآن، ولا بما يحقق أعظم تأثير طبقا لمقتضى الموضوع وحال المخاطبين كما في القرآن.

فالقرآن كله معجز، من كل وجه معجز. إلا أن هذا الوجه وحده – أي أسلوب توجيه الخطاب – نحسبه أقوى الوجوه؛ لأنه يتعلق باستحالة أن يصطنع بشر كلاما يوجه فيه الخطاب: بحيث "يتقمص" فيه دور الله وجلاله؛ إذ ليس في مقدور بشر أن يتجاوز بفكره وإدراكه حدود أفكاره الخاصة وقيود مشاعره الذاتية. وهذا تحدي قائم إلى قيام الساعة، ونتيجته معروفة مسبقا، وثابتة بشهادة التاريخ وبما هو واقع مدرك من طبائع البشر وقدراتهم النفسية واللغوية، وبعض تعليله هو ما أسلفنا من تحليل.

وهذا التتبع والتدبر لتوجيه الخطاب في القرآن هو المدخل القويم إلى اليقين بإعجاز القرآن وصدق تنزيله من المولى عز وجل، دون تدخل بشر ولا عبث عابث. وهو أيضا المدخل الأقرب والأيسر؛ حيث لا يتطلب إتقاننا للغة ولا غوصا في أسرار البلاغة. بل إنني أحسب أن القارئ الأعجمي لترجمات معاني القرآن بأي لغة (إن التزمت الدقة في مطابقة توجيه الخطاب لما في الأصل العربي) سيدرك هو الآخر

## الإعجاز اللغوي للقرآن

ويستشعر ما يتوصل إليه كل قارئ متدبر واعٍ: أن الذات المتكلمة من خارج البشر وفوق كل البشر.

وربما كان هذا الإدراك والاستشعار هو العامل الأساسي وراء دخول الرعيل الأول من العرب في الإسلام بمجرد سماعهم لآيات معدودة من القرآن. فقد أدركوا بسليقتهم وفطرتهم اللغوية، ولأول وهلة - قبل أن يكتمل التنزيل ويتبين التشريع - أن هذا "الخطاب" ليس كلام بشر؛ بل قول الأسمى من كل البشر، فأمنوا به وسلموا. لم يكن الأمر مجرد انبهار بروعة النص وسمو العبارة فوق كل ما عرفه السابقون واللاحقون من شعر أو نثر؛ فالانبهار وحده مدعاة للإعجاب والإمتاع ثم الإشادة، وقد لا يكون لدى البعض سببا كافيا وحده للإيمان بآلة اليقين، ذلك الإيمان واليقين الذي ترسخ في قلوب المؤمنين الأوائل، ومن تبعهم بإحسان، فواجهوا به الدنيا بأسرها وشروا به بظهر الغيب دار الخلود.

## الإعجاز اللغوي للقرآن

1.

## الفصل الثاني الرسول والوحي

سنثبت في هذا الفصل من وقائع سيرته صلى الله عليه وسلم، أن النص القرآني لا صنعة فيه للرسول ولا لأحد من الخلق في زمانه، وأن دوره صلى الله عليه وسلم لم يتجاوز: تلقي النص ووعيه وحفظه، ثم تبليغه وبيانه وتفسيره، ثم اتباعه والعمل بما فيه.

### 1/2 خطاب القرآن للرسول:

تكرر في الخطاب القرآني توجيه الرسول الكريم وتنبيهه إلى ما يجب عليه حيال ربه والوحي المبعوث به وحيال المؤمنين والكافرين كما رأينا في الفصل الأول. كما تكرر التنبيه والتحذير من الانسياق وراء ما يحيط به من فتن وضغوط، وبالقرآن كذلك نوع من العتاب للرسول الكريم في بعض مواقف، وجلاء لبعض ما يضمه في قرارة نفسه الطاهرة من أمور أثر كتمانها عن الناس. ويصعب على العقل السليم أن يتخيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم يوجه الخطاب إلى نفسه موجهًا ومنبهًا، أو محذراً ومعاتبًا، أو مظهرًا ما لا يحب جلاءه، ثم يبلغ ذلك للناس قرآنًا لا يُنسخ ولا يُحذف ولا يُنسى. وإنما ذلك برهان ناصع على أن القرآن هو كلام الله يخاطب به النبي البشري، الذي بلغ الرسالة كما جاءته، وأدى الأمانة بصدق، صلوات الله عليه وتسليماته.

### ■ في التوجيه المتعلق بتلقي الوحي:

- 1- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ\* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ\* فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة 16 – 18]  
كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي تحرك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله هذه الآية. (رواه البخاري ومسلم وأحمد)



## الإعجاز اللغوي للقرآن

2- ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي  
عِلْمًا﴾ [طه 114]

قال السدي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه، حتى يشق على نفسه، فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظ. فنزلت الآية.

3- ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ \* إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾  
[الأعلى 6 - 7]

قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها. فنزلت "سنقرئك فلا تنسى" بعد ذلك شيئاً؛ فقد كفيئتك.

4- ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾  
[يونس 109]

5- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ  
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَبْدِلُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ  
إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ \* قُلْ لَوْ  
شَاءَ اللَّهُ مَا ثَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا  
تَعْقِلُونَ﴾ [يونس 15 - 16]

قال مجاهد: نزلت في مشركي مكة. وقال الكلبي: نزلت في المستهزئين، قالوا: يا محمد، انت بقران غير هذا، فيه ما نسألك.

### ■ تنبيهات وتحذيرات قرآنية:

1- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَنَنَّا عِلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا  
لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا \* وَلَوْ لَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكُّنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا \* إِذَا  
لَا ذِقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾  
[الإسراء 73 - 75]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

نزلت في جماعة من قريش، كأبي جهل وأمية بن خلف. قالوا: يا محمد، تعال تمسح بالهتنا وندخل معك في دينك. وكان يحب إسلام قومه، فأنزل الله هذه الآية.

2- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ\*وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد 37 – 38]

3- ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة 49]

قال ابن عباس: جاء بعض علماء اليهود فقالوا: يا محمد نحن أحبار اليهود، ولو اتبعناك لاتبعتك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين أناس من قومنا خصومة، ونريد أن نتحاكم إليك. فإن قضيت لنا أعلننا صدقك. فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم "واحذرهم".

4- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة 145]

5- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة 120]

روي أن اليهود كانوا يسألون النبي ﷺ، ويطمعون أنه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه ووافقوه. فنزلت هذه الآية.

## الإعجاز اللغوي للقرآن

6- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة 67]

عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال: إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي، فوعدني لأبلغن أو ليعذبني. فنزلت: "يا أيها الرسول ..."

7- ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام 14]

نزلت حينما عرض كفار مكة على النبي ﷺ نصيباً من أموالهم، حتى يصير أغناهم رجلاً، ويرجع عما هو عليه من الدعوة.

8- ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام 114]

9- ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود 112]

10- ﴿لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر 88]

11- ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم 48]

12- ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا\* قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن 21-22]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

أخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر أن جنيا من الجن من أشرافهم ذا ثبع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله، وأنا أجيره. فأنزل الله هذه الآية.

■ فيما يشبه عتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم):

1- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا \* وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا \* يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا \* هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء 105 – 109]

نزلت عندما هم الرسول ﷺ أن يستجيب لدفاع الأنصار عن طعمة بن أبيرق الذي سرق درعا من جاره وخبأها عند يهودي ليتهمه بها.

2- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة 43]

إشارة إلى إذنه لبعض المنافقين بالعودة عن غزوة تبوك، ومثلها أيضا الآية:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة 117]

3- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة 113]

نزلت عقب وفاة أبي طالب عم النبي ﷺ، واستغفار النبي له رغم رفضه الاستجابة لنداء الرسول أن يشهد أن لا إله إلا الله.

## الإعجاز اللغوي للقرآن

4- ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام 52]  
نزلت في جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء لعشيناك وحضرنا مجلسك، وأراد النبي ﷺ ذلك طمعا في إسلامهم.

5- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال 67 - 68]  
عتاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه على قبول أخذ الفداء عن أسارى غزوة بدر من المشركين.

6- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم 1]  
لتحريمه على نفسه شرب العسل، إرضاء لعائشة وحفصة رضي الله عنهن، استجابة لما طلبته، غيرة من زوجه زينب بنت جحش رضي الله عنها.

7- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيٰ أَوْ يُدْرِكُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَىٰ فَأُنْتِ لَهُ تُصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكِّيٰ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأُنْتِ عَنْهُ تَلْهَىٰ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس 1-11]

لإعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، لانشغاله بالحديث مع بعض من صناديد قريش طمعا في إسلامهم.

### ■ إعلان القرآن بما يضمره الرسول:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ

فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿[الأحزاب 37]

## 2/2 موقف الرسول من الوحي:

■ تأخر الوحي عنه أكثر من شهر في قصة الإفك، رغم حاجته القصوى للرد على المنافقين والطاعنين:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور 11 - 17]

■ تبرؤه ﷺ من علم الغيب إلا ما يوحى إليه:  
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام 50]  
﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف 188]  
﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف 9]  
- وعن الربيع بنت معوذ بن عفراء: جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُني عليّ فجلس على فراشي كمجلسك مني فجعلت جويزات

## الإعجاز اللغوي للقرآن

لَنَا يَضْرِبُنَ بِالْذُّفِّ وَيَنْدُبُنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ، إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍّ، فَقَالَ: دَعِيَ هَذِهِ وَقَوْلِي بِالَّذِي كُنْتَ تَقُولِينَ (البخاري وأبو داود).

■ اجتهاده في تفسيره لبعض الآيات، حتى ينزل الوحي مخالفا لما ارتآه:

كما كان في موقفه من الصلاة على عبد الله بن أبي كبير المنافقين عندما راجعه عمر رضي الله عنه قائلا: أَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فقال ﷺ: إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة 80]، وسأزيده على السبعين... فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة 84]، فترك الصلاة عليهم. (البخاري ومسلم).

3/2 في استحالة أن يكون ﷺ قد تلقى الوحي عن معلم بشري<sup>(1)</sup>:

- إن كان محمد (صلى الله عليه وسلم) - جدلا - قد أخذ القرآن عن معلم فلنبحث بين الأوساط البشرية عن ذلك المعلم:
- بين الوثنيين والأميين؟ لا يكون الجاهل مصدرا للعلم.
- بين علماء أهل الكتاب؟ هل كان منهم يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد (صلى الله عليه وسلم) وقرآنه تلك اليد العلمية؟ لقد كان موقف القرآن منهم موقف المصحح لما حرفوا، الكاشف لما كتموا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران 65]

(1) بتصرف عن كتاب: "النبي العظيم".

## الإعجاز اللغوي للقرآن

﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ عَأْتَنُكُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة 140]

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران 93]

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران 96]

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران 181]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة 64]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة 30]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة 18]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ \* لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة 72 – 73]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران 64]



## الإعجاز اللغوي للقرآن

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا آلَهُنَّآ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف 57 – 58]  
﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* وَكَفَرُوا بِمَرْيَمَ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا \* وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا \* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا \* وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا \* فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا \* وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء 155 – 161].

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم الرسول علومه؟  
أم على العكس ترى منه معلما يصحح لهم – بما أنزل عليه - أغلاطهم  
وينعي عليهم سوء حالهم؟

■ ولنعد مرة أخرى فنسأل: هل كان علم العلماء يومئذ مبذولا لطالبيه  
مباحا لسانليه؟، أم كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على  
حياتهم، وكانوا يضمنون به حتى على أبنائهم؟ استبقاء لرياستهم أو  
طمعا في منصب النبوة الذي كانوا يستشرفون له في ذلك العصر؟  
واقرا هذه الآيات البينات:

﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ  
ثَمَنًا قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة 79]  
﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ  
الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ  
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران 78]

## الإعجاز اللغوي للقرآن

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَذُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْنُمْ مَا لَمْ نَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام 91]

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران 93]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران 71]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة 15].

- من زعم أن له معلما من البشر فليسمه: ما اسمه؟ ومن الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟ وما أدراك من هو ذلك البشر الذي قالوا أنه يعلمه القرآن العربي المعجز، الذي كشف وصحح تحريف أهل الكتاب وضلال المشركين، وجاء بمعارف ومفاهيم سبقت معارف كل البشر بقرون؟ إنه حداد أعجمي (رومي) بمكة:
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل 103].

حقا، من ضاقت به دائرة الجد لم يسعه إلا فضاء الهزل.

## الفصل الثالث إعجاز البيان

لقد ثبت عجز العرب في كل زمان ومكان عن الإتيان بمثل بيان القرآن أو أي سورة منه، رغم تحدي القرآن لهم، ورغم وجود الدافع لدى أعداء الإسلام في كل جيل وإلى قيام الساعة، ورغم انتفاء المانع، إذ كانوا أهل الفصاحة والبلاغة؛ والقرآن بلغتهم وألفاظهم وأساليبهم . سنوجز في هذا الفصل بعضاً من معالم الإعجاز البياني للقرآن، التي يلمسها كل قارئ ودارس ومستمع للقرآن بعقل مفتوح وحس مرهف. ولا حاجة لنا لعرض الكثير من الشواهد والأمثلة من القرآن، إذ أن القرآن كله معجز في بيانه، قليله وكثيره وجملته.

### 1/3 جوانب عامة:

- النسق البديع الخارج عن المؤلف من كلام العرب – شعره ونثره – وكذلك اختلافه البين عن أسلوب مبلغه صلى الله عليه وسلم وهو القائل: ((أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ (ثَلَاثَ مَرَاتٍ) وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ)) (رواه أحمد).
- بل واختلافه البين أيضاً عن أسلوب الأحاديث القدسية، التي أوحيت إلى الرسول ﷺ بمعناها؛ فصاغها وبلغها بأسلوبه البشري.
- جريانه على مستوى رفيع واحد رغم تنوع المعاني والموضوعات، حتى آيات التشريع والأحكام، وقرأ آية الدِّين (البقرة 282)، وكذلك آيات الموارِيث (النساء 11-12).
- مناسبته لكل الناس على اختلاف معارفهم وعصورهم، فيفهمه ويتأثر به ويتبعه العامة والخاصة، والبسطاء والعلماء، على امتداد الزمان وتتابع القرون.
- تداخل معانيه وموضوعاته بحيث ترتبط في بناء متكامل متناسق يتعذر الإتيان بمثله؛ إذ لا يكون التنقل المتكرر في الموضوعات والمعاني وفي توجيه الخطاب – من كاتب بشري – إلا مدعاة للخلل والاضطراب.

## الإعجاز اللغوي للقرآن

- تصريف البيان بالتنوع الشديد في التعبيرات لنفس الموضوع، بحيث يؤدي كل تعبير معنى جديداً، سواء في القصص القرآني، أو أمور الآخرة أو غير ذلك.
- التنوع الشديد في توجيه الخطاب بما يتناسب مع السرد، وبما يجسد المواقف والمعاني تجسيدا حقيقيا واقعيا (من الله إلى الرسول أو إلى جماعات من الناس، أو عن الله، أو بضمير الغائب عن أشياء أو أشخاص أو جماعات).
- الإحساس بجلال الربوبية الذي يشي به التعبير القرآني برمته، إذ يستحيل نفسيا أن يتصنع بشر تقليد هذا الأسلوب على امتداد نص بهذا القدر (وانظر تفصيل ذلك في الفصل الثالث).
- إخراج مدلول اللفظ والجملة من المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة المتخيلة، وخاصة في القصص القرآني ومشاهد القيامة. ومن ذلك أيضا الأمثال في القرآن، مثل آية النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور 35].
- تحويل الصور من شكل صامت إلى منظر حي ناطق متحرك، كما في وصف مجيء الليل وطلوع النهار: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ \* وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير 16-18]، وغيره الكثير.
- تضخيم المنظر وتجسيمه حيثما يتطلب الجو والمشهد ذلك، كما في تصوير خيل الجهاد: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا \* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا \* فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا \* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا \* فَوَسَّطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات 1-5]. وانظر المزيد في كتاب "التصوير الفني في القرآن".
- تكامل ووحدة موضوعات الآيات والسور في القرآن ككل، بحيث يفسر بعضه بعضا، ولا يتباين ولا يختلف بعض آيه عن بعض: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء 82]. ومن ذلك تكامل القصص القرآني (انظر

## الإعجاز اللغوي للقرآن

4/3)، وتكامل الخطاب الدعوي في تناوله لكل دواعي وأسباب الكفر؛ يكشفها ويدحضها الواحد تلو الآخر (وانظر كتاب "لا يأتون بمثله")، وكذلك مشاهد القيامة (انظر كتاب "مشاهد القيامة في القرآن").

■ خلوه من التكرار إلا لغرضين: التأكيد وما يصحبه من توضيح المعنى وتعظيم التأثير، أو لأجل تكامل الصور والأشكال التي يعرض بها الموضوع، كما في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وسورة المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وسورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، وآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد 5]

■ إعجاز الوفاء بالأهداف المتباينة والمتضادة في نفس الوقت مثل:

- الإيجاز الشديد أو الحذف مع الوفاء الكامل بالمعاني المرادة.

- الإجمال مع التفصيل.
- خطاب العامة وخطاب الخاصة، كما أشرنا من قبل.
- إقناع العقل وإمتاع العاطفة، الذي يستشعره كل قارئ متدبر، حتى في آيات الأحكام والتشريع.

■ الإعجاز العددي الذي يتمثل في موافقات في تكرار بعض الألفاظ المتقابلة، التي يعجز أي مخلوق على مراعاتها مسبقاً في صياغة نص بهذا الطول والتنوع، ويستحيل أن يتحقق بمجرد الصدفة المحضة، ومن ذلك ورود ذكر الشياطين والملائكة (88 مرة بصيغها المختلفة)، والدنيا والآخرة (115 مرة)، والسينات والصالحات (180 مرة بمشتقاتها)، والقرآن والوحي والإسلام بمشتقاتها (70 مرة لكل منها).

## 2/3 الإعجاز اللفظي:

■ كمال الفصاحة في اختيار كل لفظ بحيث يؤدي المعنى على أدق وجه وأوفاه بما لا يؤديه لفظ آخر. وهو باب كبير من أبواب الإعجاز، منه مثلاً لفظ "أغطش" بمعنى أظلم، في الآية: ﴿وَأَغْطِشْ لَيْلَهَا وَأَخْرِجْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات 29]، بما يحمله اللفظ في أذن السامع من الإحساس بالظلمة والصمت والركود والوحشة. ومنه أيضاً لفظ "سكننا" في الآية: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام 96]، أي سكونا وهدوءاً وطمأنينة، يشي بها جرس الكلمة،

النابع من طبيعة الأحرف وتوالي الفتحات: سَكَنًا.

■ الاختيار الدقيق للألفاظ المتقاربة – التي تبدو مترادفة – بحيث تميز بين أدق الفروق في المعنى لكل منها، وبحيث إذا استبدل اللفظ بنظيره فقد النص عمق معناه ودقة تصويره وجمال جرسه. ومثال لذلك التمييز بين لفظ "الرؤيا" للدلالة على الرؤيا الصدقة للأنبياء [كما في آيات (الفتح 27، والإسراء 60: للرسول ﷺ؛ و الصفات 104-105: لإبراهيم عليه السلام؛ ويوسف 4-5 ثم 100: ليوسف عليه السلام)، وكذلك رؤيا الملك التي تحققت (يوسف 43)]، وبين لفظ "الحلم" للرؤى المهوشة والهواجس المختلطة [كما في آيات (الأنبياء 5، ويوسف 44)]. وانظر المزيد في كتاب "الإعجاز البياني للقرآن".

■ التجانس في الدلالة القرآنية لكل لفظ من الألفاظ المتقاربة حيثما تكرر استخدامه في القرآن، وارجع في ذلك إن شئت إلى معاجم ألفاظ القرآن، أو إلى كتاب "المترادفات في القرآن المجيد".

■ تجانس استخدام الحروف – كالباء، والواو، والفاء، و"ثم" – بنفس الدلالة لكل منها في كل أرجاء القرآن.

### 3/3 إعجاز الجملة القرآنية:

- الاتساق اللفظي الصوتي، الذي تدركه الأذن – حتى لو لم تفهم المعنى أو تعرف العربية، وترتب على ذلك سهولة نطقه باللسان: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر/11]، وتيسير حفظه عن ظهر قلب، حتى أن الطفل الصغير يحفظه بيسر كما حفظته الأجيال عبر القرون. وليس ثمة نص بهذا الطول وهذا التنوع يسره الله للحفظ ككتابه العزيز.
- دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ من أشهرها آية القصص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة 179]، وكذلك الآية: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف 199]. ومن ذلك أيضا آيات التشريع، مثل آية الرضاع (البقرة 223) التي اشتملت على ثلاثة وعشرين حكما، وآيتا المواريث (النساء 11-12) التي ضمت جل علم الفرائض (وانظر كتاب "من روائع القرآن").
- بلاغة الحذف في بعض المواقف للدلالة على المعنى بأبلغ عبارة وأكثرها تأثيرا، كما يتجلى في آيتي (طه 69-70): ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى \* فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُدًّا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ، فقد حذف من بين الآيتين تفاصيل كثيرة، أي: فألقى موسى عصاه بيمينه فتلقفت حبال السحرة، فانبهر السحرة ولم يجدوا بدا من التسليم بصدق موسى فسجدوا.
- الترتيب المحكم للألفاظ داخل الجملة – تقديم وتأخير، وللجمل داخل الآية؛ لأدق تعبير وأعمق تأثير.
- البلاغة المثلى في توظيف الصور البيانية (كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز)، والمحسنات البديعية (كالسجع، والجناس، والطباق، والمقابلة)، والأساليب الإنشائية (كالأمر، والنهي، والتعجب، والقصر، والفصل والوصل) في الموضع وبالقدر المناسب بلا مبالغة أو افتعال.

### 4/3 إعجاز القصص القرآني:

- وحدة أهدافها لتحقيق غايات ثلاث: إثبات الوحي والنبوة، والموعظة والاعتبار، وبيان وحدة الرسالات السماوية.
- بلاغة الاختصار على سرد التفاصيل التي تخدم هذه الأهداف.
- تكرير سرد القصة في سور مختلفة بصورة مغايرة، وبأهداف وسياق مختلف في كل مرة، بحيث يتكامل موضوع القصة رغم سردها في مشاهد ومواقع مختلفة. ويتبين لك ذلك جليا إذا ضاهيت رواية قصة أي من أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب؛ في كل من سور: (الأعراف) و(هود) و(الشعراء).
- إقحام النصائح والعظات في ثنايا كل قصة وكل موقف أو حوار.
- العرض التصويري الحي (انظر 1/3).
- التنوع في استهلال رواية القصة والدخول إليها.
- العرض التمثيلي للقطات والمشاهد المترابطة، وحذف ما لا يلزم من المشاهد؛ إذكاء للتصور والخيال.

### \*إعجاز البيان التشريعي:

- صبغ كل المواضيع بصبغة الهداية والموعظة والإرشاد.
- التدرج في التشريع لتعويد الناس التحول عن فواحشهم، كما في التدرج في آيات تحريم الخمر، وكذلك في التدرج في تشريع الجهاد في سبيل الله.
- إظهار التيسير وتأكيد الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة لمن يتبع شرع الله.
- إبراز أسوأ سمات وأعمال الكافرين، في مقابل إبراز أسمى خصال وفعال المؤمنين.
- المقابلة دائما بين حدي الثواب والعقاب في الجنة أو النار.



### 5/3 إعجاز السور القرآنية<sup>(1)</sup>:

- تكامل المعاني وتجانس الأسلوب والإيقاع لكل سورة، رغم تناولها لموضوعات متعددة ونزول آياتها في مناسبات متباعدة، ورغم أن:

أ- صنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معنى أشق منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد.

ب- نزول القرآن مفرداً حسب الوقائع والدواعي على تباعد زمني، مما لا يسمح عادة بالتواصل والترابط.

ج- إن جمع الأحاديث المختلفة المعاني، المتباعدة الأزمنة، المتنوعة الملابسات في حديث واحد مسترسل هو مظنة التفكك والاقتضاب ومظنة المفارقة والتفاوت (مثال: طبق هذا على أي مجموعة من نصوص الحديث النبوي الشريف في أي باب من الأبواب - أو على غير ذلك من الأحاديث المتفرقة لأحد البلغاء في موضوع ما - لتجعل منها سرداً واحداً ليتبين لك ذلك).

د- عجز البشر عن الاهتداء إلى تحديد وضع كل جزء من أجزاء المركب قبل تمام أجزائه، بل قبل معرفة طبيعة تلك الأجزاء. وطبق ذلك على أي منشأة أو صناعة أو نشاط بشري؛ لتوقن كيف أن وقوع ذلك في القرآن إنما هو تحدي للقدرة البشرية جمعاء إلى آخر الزمان.

- إن اجتماع هذه الأسباب كلها في كل سورة نزلت متفرقة دون أن تغض من إحكام وحدتها، ولا من استقامة وزنها هو بالتحقيق معجزة المعجزات، ولا يجرؤ في قرارة الغيب على وضع هذه الخطة المفصلة المصممة مسبقاً ثم تنفيذها بدقة، إلا عالم عليم فوق أطوار العقل.

(1) بتصرف عن كتاب: "النبي العظيم" - محمد عبد الله دراز، فريخ وتعليق عبد الحميد أحمد الدخايني.

## الإعجاز اللغوي للقرآن

- كما أن مطاوعة تلك الأحداث الكونية، ومعاونتها بدقة دائما لنظام هذه الوحدات البيانية شاهد واضح على أن هذا القول وذلك الفعل كانا يجيبان من طريق واحدة، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته<sup>(2)</sup>.

### \* خلاصة الإعجاز البياني:

نجل ما بسطناه عن جوانب إعجاز البيان في القرآن في أنه:  
أولا- "اجتمعت في بنائه كل مواصفات الكمال و الجمال، سواء في اختيار مفرداته أو ترتيب ألفاظه أو تراكيبه النحوية أو صيغته البلاغية؛ بحيث تؤدي أسمى الدرجات في: دقة التعبير عن المعاني المركبة والأحاسيس المتداخلة، مع بلوغ الغاية في إقناع العقل وإمتاع السمع والتأثير في المشاعر وتحريك العزائم؛ مما يؤكد أنه إنما قُدِّر تقديرًا محكمًا وصُمِّم قبل نزوله بحساب دقيق ووزن حكيم لكل حرف وجملة وآية وسورة ثم تمام الكتاب، مع تكامل سورته والتناسق والتكامل الداخلي لكل سورة – رغم نزوله في سور متفرقة ( بل في آيات أو مجموعات متفرقة للسورة الواحدة) عبر ثلاث وعشرين عاما، وفي مناسبات جد متباينة".

ثانيا- "كما أن التباين بين بيان القرآن وسائر البيان لا يتمثل في "بعض" مكونات بنائه من ألفاظ الفصحى والأساليب الإنشائية والصور البلاغية؛ فهذه وتلك نجد أمثالها في القرآن كما نجدها في كلام العرب، كما لا يتمثل في "بعض" صفات الكلام – تأثيرا وتعبيرا وجمالا- التي قد نلمسها (بدرجات: متفاوتة في كلام البشر، وبأعلى درجة في القرآن)،

(2) حُزِبَ لذلك مثلٌ عملي تطبيقي بتحليل ترابط المعاني في سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والخلفات، وفي نسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات، وذلك في سورة البقرة، أطول سور القرآن (282 آية)، والتي نزلت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها في نيف وثمانين مناسبة – عبر تسع سنوات (انظر كتاب: "النبا العظيم").

## الإعجاز اللغوي للقرآن

بل هو في اجتماع "كل" صفات الكمال والجمال وبأقصى درجاتها في البيان القرآني "بأكمله" دون سواه".

### خلاصة الباب الأول

- البيان القرآني معجزة المعجزات، اجتمعت فيه أقصى درجات الجمال والسمو والكمال، بحيث تعجز عقول البشر – أفراد أو مجتمعين – عن الإتيان بمثله، أو الوفاء بأي مما عرضنا له، في الفصل الأول، من شتى جوانب إعجازه، فضلا عن الوفاء بها مجتمعة.
- وشأن الرسول الكريم ﷺ مع الوحي لا يتجاوز شأن المتلقي المترقب، والمبلغ الأمين حرفا بحرف وآية بآية، كما أسهبنا وأثبتنا في الفصل الثاني.
- ثم سلطنا الضوء على ذلك الالتفات المتكرر في القرآن، من صورة من صور الخطاب لأخرى، بحيث يتجلى الله تعالى بصيغة أو بضمير المتكلم، في الموضع المناسب لجلال ربوبيته، ويذكر بصيغة أو بضمير الغائب في غيرها، بما يليق أيضا بجلاله؛ وبحيث يخاطب الرسول – أيضا عند الاقتضاء - بنص خارج مستقل عن ذاته ﷺ.
- كل ذلك يثبت ويؤكد ويجزم أن هذا الخطاب القرآني وإدارته بهذه الدقة والبراعة، التي ما بعدها دقة أو براعة، إنما ينبع من خارج الرسول المبلغ الأمين، ومن مصدر عليم فوق كل البشر: من العليم الحكيم ذي العلم الأسمى، الذي ينفذ البحر قبل أن تنفذ كلماته، وهو الذي تحدى البشر فعجزوا وسلموا وأيقنوا بعجزهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى قيام الساعة.

ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.  
ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

## تدريبات إيمانية

بعد أن تعرفت على نماذج شتى من أساليب الخطاب، وصور الالتفات التي يزخر بها القرآن، ويعجز عن الإتيان بمثلها الإنس والجان؛ وخاصة تلك التي يتجلى فيها الخطاب من الله بالصيغ النحوية للمتكلم، وكذلك التي يوجه فيها الله تعالى خطابه مباشرة إلى الرسول ﷺ بصيغ مختلفة:

- 1- درب نفسك في قراءتك للقرآن على تتبع أمثال تلك النماذج، وتذوق معناها وتدبر جليل حكماتها. ثم وطن نفسك كلما تعاود القراءة القرآن على التنبيه إلى اتجاه الخطاب، وكيف يصرفه المولى عز وجل في الموضع الأمثل والسياق الأنسب: معلنا عن نفسه جل وعلا، أو مخاطبا الرسول ﷺ، أو هاديا ومبشرا المؤمنين، أو مبكنا ومنذرا الكافرين، أو منبئا - بجلال أسلوب الغيبة - عن عجائب قدرته وتفرد صفاته، أو مشيرا إلى غيبه الذي استأثر بعلمه عن بداية الخلق أو أمور الآخرة.
- 2- تأمل أيضا ما تؤول إليه أي عبارة تتعلق بالله تعالى (بصيغة المتكلم أو بصيغة الغيبة) إن قلبت أسلوبها إلى غير ما نزلت به: كيف تتدنى بالمعنى بعيدا عن جلال الربوبية؟ لتوقن بأنك إنما تصغي بسمعك وعقلك وقلبك إلى كلام منزل الكتاب الهادي العليم الحكيم.
- 3- ثم وطن نفسك بعد ذلك على الإمام بأساسيات علوم البلاغة والنحو والأساليب الإنشائية، لتتمكن من تتبع وتذوق إعجاز البيان في القرآن. استعن في ذلك بالتفسير التي تعتني بجلاء الأساليب البلاغية، مثل: "صفوة التفسير" لمحمد علي الصابوني، و"في ظلال القرآن" لسيد قطب، و"التفسير المنير" لوهبة الزحيلي. وللتوسع يمكنك إن استطعت الرجوع إلى مراجع إعجاز القرآن، التراثية منها والمعاصرة.
- 4- اعتن أيضا بالتعرف على أسباب النزول، وخاصة لتلك الآيات التي يرد فيها الخطاب موجهها إلى الرسول ﷺ. استعن في ذلك أيضا بما ورد في متن أو على هامش كتب التفسير.

## دليل المصادر

1. فتحي عبد القادر فريد - فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب - مكتبة النهضة المصرية.
2. مالك بن نبي - الظاهرة القرآنية (ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمود محمد شاكر) - مكتبة دار العروبة - 1958.
3. محمد أبو زهرة - المعجزة الكبرى للقرآن - دار الفكر العربي.
4. محمد سعيد رمضان البوطي - من روائع القرآن - مكتبة الفارابي بدمشق.
5. محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم (تحقيق عبد الحميد أحمد الداخني) - دار المرابطين بالإسكندرية.
6. محمد قطب - لا يأتون بمثله - دار الشروق.

### ثانياً- مراجع نافعة للاستزادة:

7. سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - دار الشروق.
8. سيد قطب - مشاهد القيامة في القرآن - دار الشروق.
9. عائشة عبد الرحمن - الإعجاز البياني للقرآن - دار النشر للجامعات.
10. عبد الصبور شاهين - حديث عن القرآن - دار أخبار اليوم.
11. عبد العظيم المطعني - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - مكتبة وهبة.
12. عبد الكريم الخطيب - الإعجاز في دراسات السابقين - دار الفكر العربي.
13. محمد محمود غالي - المترادفات في القرآن المجيد - دار النشر للجامعات.
- مصطفى صادق الرافعي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - دار الفكر العربي.

## الباب الثاني السماء والأرض في القرآن

### تمهيد

القرآن معجزة الإسلام الخالدة يحمل في طياته، لفظاً ومعنى، وبيانا وحقائق، البرهان الساطع لكل البشر في كل العصور على صدق تنزيله من الخالق العليم. وبالقرآن إشارات وتعبيرات في غاية الدقة، وكذلك تنبؤات بما هو آت ، تتجاوز قدرة البشر وقت التنزيل وبعده بقرون ، مما يقطع باستحالة صدورها عن مخلوق ، وتبرهن على أن مصدرها خالق الكون العليم، القيوم عليه من الأزل إلى الأبد، ولا ريب أن بين طيات القرآن مزيداً من عبارات لا نفقه بعد مغزاها العلمي الحق، سيكشف تقدم العلم (كما كشف من قبل) ما وراءها من براهين تزداد بها الأجيال يقيناً.

في الفصول التالية نتناول بعضاً مما قرره القرآن أو أشار إليه من حقائق علمية وتاريخية – غمض عنها عند نزول القرآن وبعده بقرون – ثم كشفها وأثبت صدقها تقدم العلم ووقائع التاريخ ، لنبرهن بها على صدق تنزيل القرآن وبعثة الهادي الأمين. تستمد الدراسة من معظم ما كتب عن المعارف العلمية في القرآن والسنة ، بعد مراجعة ما جاء بهذه الدراسات على أقوال المفسرين في الماضي والحاضر ، وتحقيق الجوانب العلمية ، وبحث المعاني اللغوية ، للاقتصار على تلك الجوانب التي ينطبق فيها المعنى المباشر والتفسير المقبول للآية في موضعها بالسورة على الحقائق العلمية التي استقرت بالملاحظة والتجريب وإجماع أهل الاختصاص العلمي واستبعاد ما عدا ذلك من اجتهادات ، وقد ذيلنا الدراسة ببيان مراجع التحقيق ، والمصادر التي تناولت موضوعات الدراسة من زوايا مختلفة وبمناهج ورؤى متباينة.

## الفصل الرابع في الكون والفضاء

### 1/4 تماسك الكون:

قال تعالى في سورة الرعد:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2]<sup>(1)</sup>.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10]<sup>(2)</sup>.

أي أن قوى ميكانيكية غير مرئية ترفع الأجسام السماوية بعيدا عن بعضها بأمر الله، ومصدر هذه القوى الطاردة طاقة الحركة التي انطلقت بها الأجسام منذ انفصالها عن بعضها البعض والتي تعادل بها تأثير الجاذبية. الجاذبية بدورها قوى غير مرئية تؤثر على الأجسام المادية سواء كانت أجراما سماوية أو جسيمات نووية، ويختلف التعبير القرآني في هذه الآيات - مع دقته ووضوحه - كثيرا عن تصورات البشر في الماضي القريب، حيث سادت خزعبلات عن طبيعة الأجرام السماوية والقوى التي تحكمها وتشدها إلى بعضها البعض.

### 2/4 أبعاد الكون:

كلما هدى الله الإنسان إلى مزيد من المعارف الفلكية كلما تفتن إلى الجديد من أوجه الإعجاز في الإشارات الكونية بالقرآن الكريم، فقد أدرك الإنسان أن مواقع النجوم كلها مقدرة تقديرا بحساب دقيق:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 75 ، 76]<sup>(3)</sup>.

(1) بغير عمد مرئية لكم ولكن رفعها بقدرته وبما شاء من سنن (أيسر التفاسير).

(2) وفي هذا التعبير إشارة إلى أن هناك أعمدة غير مرئية وهي سنة نظام الجاذبية التي خلقها بقدرته، وجعل الأجرام السماوية متماسكة بها (أيسر التفاسير).

وفي مثل هذا المعنى أيضا:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ [البروج:1]<sup>(4)</sup>.

وكل ما في الكون من أجرام يسبح في أفلاك:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:

33]<sup>(5)</sup>.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

﴿

[يس: 40].

والسباحة لغة هي: الحركة الذاتية: وهذا تصحيح للفلسفة اليونانية القديمة التي

كانت تتادي بأن الشمس والقمر والكواكب كل مغروز في أغلفة كروية شفافة حول

الأرض - المركز المشترك للكون في تصورهم.

الكون الذي يمتد إليه بصرنا (إلى أقصى مدى تتيحه وسائل الرصد) مترامي

الأطراف حتى أن قطر مجرتنا - بما فيها من نجوم (أحدها الشمس) وكواكب

وأقمار يبلغ حوالي 100000 (مائة ألف) سنة ضوئية، أي يقطعه الضوء في

100000 سنة، أما أقرب المجرات (من ملايين المجرات في الكون) فتبعد

700000 سنة ضوئية عن مجرتنا، فسبحانك ربي كما وصفت ذاتك:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

والأرض ليست - كظن الأقدمين - محور الكون بل هي كوكب تابع

للشمس، أحد نجوم مجرة درب التبانة التي تضم قرابة 100 بليون نجم منتشرة في

الفضاء المتسع، يبلغ "أقصر" قطر لها كما ذكرنا 100000 سنة ضوئية، ولما

(3) لم يكن المخاطبون (وقت نزول القرآن) يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل، أما في هذا العصر فقد ظهرت

معجزة القرآن (الصفوة)، وتبين الآيات مدى أهمية هذا القسم العظيم، فلو كان بعد الشمس عن الأرض أقل أو أكثر مما هو عليه الآن فإن الحياة تصبح قاسية متعذرة... وإذا ما اقترب نجم من النجوم من الشمس فإن ذلك يؤدي إلى اختلال في التوازن وإلى الهلاك وإلى الفناء (المنتخب).

(4) البرج واحد من بروج الفلك، وإنما قيل للبرج بروج لظهورها وبيانها وارتفاعها (اللسان).

(5) الفلك: المدار يسبح فيه الجرم السماوي (الوسيط)، وتسبح في الفلك: إذا جرت في دورانها (اللسان).



كانت سرعة الضوء 300000 كم/الثانية، فإن هذا القطر يعادل حوالي 10<sup>18</sup> كم (10 أس 18)، أي مليون مليون مليون كيلو متر، وتقع الشمس على مسافة 300000 سنة ضوئية من مركز المجرة، وهذه المجرة بما فيها ما هي إلا واحدة من بلايين المجرات التي تموج بها السماء (المرئية) والتي توصلت أقوى ما لدى البشر من تلسكوبات ووسائل رصد إلى تقديرها بأكثر من 500 بليون مجرة، علما بأن هذه الوسائل لا يمتد مجال رؤيتها أكثر من 5 بلايين سنة ضوئية في الفضاء حتى الآن.

وتتفق هذه الحقائق العلمية تماما مع التعبيرات القرآنية في وجهين.

أ . تقديم ذكر السماوات عن الأرض؛ حيثما اجتمع ذكرهما بصيغة العطف في آية (178 آية في القرآن) ، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: 3].

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر: 68].

عدا موضعين اقتضى فيها سياق الموضوع غير ذلك<sup>(1)</sup>

ب . الإشارة إلى وجود صور للحياة في العوالم الأخرى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

[النحل: 49]<sup>(2)</sup>.

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ

جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: 29]<sup>(3)</sup>.

(1) مثل آية (إبراهيم/48): "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات" حيث اقتضى سياق الحديث عن تبديل الأرض غير الأرض ثم ذكر السماوات أيضا، وكذلك الآية (طه/4): "تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا" التي جاءت في معرض تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يتلقى الوحي من العزيز الحميد الذي خلق هذه الأرض التي عليها يحيا كما خلق السماوات العلا على امتدادها.

(2) تسبق هذه الآية ركب العلم في تقرير وجود أحياء تدب على بعض الكواكب في مجموعتنا الشمسية أو خارج نطاقها، وهذا ما يحاول العلم الآن الوصول إلى حقيقته (المنتخب).

(3) ودع عنك تصور الأحياء الأخرى في السماء . . . هذه الأحياء التي تدب في السماوات والأرض (الظلال)، . . . وما نشر فيهما من الكائنات الحية المتخالفة في الصور والأشكال (المفسر)، . . . وما نشر فيهما من الدواب المرئية وغيرها . . . (المنتخب).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الرعد: 15].

ويتفق ذلك أيضا مع صيغة الجمع: "العالمين" التي تنبت في أرجاء الذكر الحكيم ابتداء من فاتحة الكتاب: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى 72 موضعا آخر. كما يتمشى مع ما جاء في الحديث من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام: "اللهم رَبَّ السمواتِ السَّبْعِ وما أَظَلَّتْ وَرَبَّ الأراضِينَ وما أَقْلَّتْ" (الترمذي).

### 3/4 تطور الكون:

نقرر أولا أنه مهما تقدم العلم فلن يصل أبدا إلى القول الفصل في كيفية نشأة الكون في الماضي السحيق، ولكننا لا نغفل عن التطابق المذهل بين المعارف الفلكية الحديثة وبين ما قرره القرآن بوضوح تام، فقد أدرك العلم البشري مؤخرا – بعون الله – أن الكون يتمدد باطراد منذ نشأته، وقد سجلت مؤخرا صور لأعماق الكون على مسافة 15 بليون سنة ضوئية، أي أنها تمثل ما كان عليه الأمر في ذلك الزمان السحيق، تشير الصور إلى تمدد في مادة الكون بعد تمزقها إلى بلايين الأجزاء في سحابة دخانية كبيرة – تلك التي كونت دقائقها فيما بعد الأجرام السماوية التي نراها الآن: نجوما انفصلت عنها كواكب وأقمار، أليس بمعجز ومثير للخشوع في آن واحد أن يشير القرآن إلى هذه المفاهيم الثلاثة في آياته التي نزلت منذ أربعة عشر قرنا ألا وهي:

#### أ . انفصال الأجرام السماوية عن جسم واحد:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30]<sup>(1)</sup>. ثم إعادة جمعها

#### يوم القيامة:

(1) الرتق: المرتوق، من رتق الشيء رتقا: سده أو لحمه (الوسيط)، وارتتق أي التأم (الصاح)، والرتق ضد الفتق (اللسان)، وفتق الشيء فتقا شقه (الوسيط)، والنظرية القائلة اليوم . . . أن . . . المجموعات النجمية كانت سديما ثم انفصلت (ورغم أن) هذه ليست سوى نظرية تقوم اليوم وقد تنقض غدا، ولكننا نتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملية التي قررها القرآن . . . السابق عليها بأجيال (الظلال)، وتقرر هذه الآية معاني علمية أيدتها النظريات الحديثة، وهناك نظريات عديدة كل منها تفسر بعض الظواهر وتعجز عن تفسير الأخرى، لذلك فليس بين هذه النظريات ما هو مقطوع به لدى العلماء بالإجماع (المنتخب) المراد أن السموات والأرض كانت شيئا واحد ملتزقتين ففصل بينهما (أيسر التفاسير).

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَآ عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104].

ب . نشأة الأجرام السماوية من دخان:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]<sup>(2)</sup>

ج. الاتساع المستمر للكون:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47]<sup>(3)</sup>.

#### 4/4 نسبية الزمن:

فكرة النسبية – التي اكتشفت في العصر الحديث – أشار إليها الخالق العظيم

مرارا في آيات معجزة تؤكد أن الزمن في الكون نسبي:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47]<sup>(4)</sup>.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5]<sup>(2)</sup>.

(2) إن نظرية الخلق تقول: إن المجرة كانت من غبار وغاز، ومن هذين تكونت بالتكثف النجوم، وبقيت لها بقية، ومن هذه البقية كانت السدم، ولا يزال من هذه البقية منتشرا في هذه المجرة الواسعة (الظلال).

(3) أوسع الشيء: صيره واسعا، (وأوسع الرجل: صار ذا سعة وغنى) (اللسان)، والتوسيع: خلاف التضييق (الصحاح)، وتشير الآية إلى معان علمية كثيرة منها اتساع السماء اتساعا لا يدركه العقل . . . تقاس فيه المسافات بملايين السنين الضوئية، والآية تشير إلى تلك السعة المذهلة التي عليها الكون منذ خلقه، كما أنها تشير أيضا إلى أن التوسعة مستمرة على الزمن، وهو ما أثبتته العلم الحديث أيضا، وعرف بنظرية التمدد التي أصبحت حقيقة علمية في أوائل هذا القرن، وحاصلها أن السدم خارج المجرة التي نعيش فيها تبتعد عنا بسرعات متفاوتة، بل إن الأجرام السماوية في المجرة الواحدة تبتعد بعضها عن بعض (المنتخب).

(1) يسبق القرآن بهذه الآية الكريمة ركب العلم بتقرير أن الزمن نسبي، وأن فكرة الزمن العالمي المطلق الذي كان يسلم به الأقدمون قبل نظرية النسبية هي فكرة خاطئة (المنتخب).

(2) فأيام الأرض مقياس زمني ناشئ عن دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة . . . وهو قياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة (الظلال).

## السماء والأرض في القرآن

اليوم الأرضي تضبطه دورة الأرض حول نفسها دورة كاملة في زمن نسميه "يوما" ونقسمه اصطلاحا إلى 24 ساعة، ثم إلى دقائق وثوان، بينما اليوم على كوكب الزهرة يعادل 118 يوما أرضيا، وعلى كوكب عطارد=176 يوما أرضيا، بينما يوم كوكب المشترى=9 ساعات و55 دقيقة، ويوم كوكب زحل=10 ساعات و40 دقيقة. في الفضاء على اتساعه إذاً لا يصبح ليومنا الأرضي معنى ولا مغزى إلا لمن يعيش على هذا الكوكب، وهنا أيضا اضطر السلف الصالح من المفسرين، وقد غابت عنهم هذه المعارف، إلى تفسير عبارة: وإن يوما عند ربك، وما شابه، بأن المراد أنه سبحانه وتعالى حليم لا يعجل، فمقدار ألف سنة عند خلقه كيوم عنده بالنسبة إلى حلمه (صفوة التفاسير) فصرفوا المعنى عن دلالة المباشرة الغائبة عن معارفهم، ومما يثير التأمل في الآية الثانية ذلك الرقم (50000 سنة) إذ أن مجرتنا التي نعيش فيها (100 بليون نجم) يقدر أقصر نصف قطر لها - من المركز إلى خارج المجرة - خمسين ألف سنة ضوئية أي أن الضوء وغيره من الموجات الكهرومغناطيسية والأجسام النوارنية عموما تستغرق هذا الزمن ذاته لتنتقل من مركز المجرة إلى الفضاء الكوني المحيط بها أو العكس، وهنا لا يستطيع العقل والإدراك البشري القاصر أن يستطرد في الاستنتاج والتعليق، والله أعلم.

ومن ناحية أخرى ليس ثمة تناقض بين الرقم 50000 في الآية الثانية والرقم 1000 في الآيتين الأخريين، فبينما يشير الرقم الأول إلى رحلات للملائكة والروح مجهولة البداية مجهولة النهاية في فضاء الله الفسيح، يشير الرقم الآخر مباشرة إلى نسبية الزمن في الكون، وإلى اتساع أبعاده التي تقدر بالآلاف السنين الضوئية.

### 5/4 التقويم:

الفرق بين التقويم القمري والشمسي = 10 - 11 يوما في السنة، فالسنة الشمسية=365.2422 يوما، بينما السنة القمرية=354.6036، ومن هنا فإن

ثلاثمائة عام شمسي تعادل تماما ثلاثمائة وتسعة أعوام قمرية=109573 يوما بلا نقص ولا زيادة، وهنا تتجلى دقة إعجاز التعبير القرآني في قصة أهل الكهف:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25]<sup>(3)</sup>.

أي أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسي تزداد تسع سنوات إضافية إن حسبنا بالتقويم القمري، والله أعلم بما لبثوا.

التقويم القمري هو التقويم الطبيعي الذي ترتبط شهوره بظاهرة طبيعية هي تغير أوضاع القمر بشكل مطرد متكرر، أما غيره من التقاويم فأساسها وحدات "شهور" افتراضية لا علاقة لها بظواهر طبيعية. صحيح أن السنة القمرية لا تتطابق مع السنة الشمسية التي فيها تتم الأرض دورة كاملة حول الشمس، إلا أن الأمر لم يكن كذلك يوم خلق الله السموات والأرض، لأن الأرض في دورانها حول نفسها ظلت تبطؤ تدريجيا منذ خلقها، بتأثير التباطؤ الطبيعي (منذ انطلاقتها منفصلة عن الشمس فيما يعتقد) إلى جانب تأثير جاذبية القمر على المد والجزر في المحيطات، فازداد يومها طولا يوما بعد يوم، بمعدل سريع في بداية الخلق حتى تناقص إلى معدل ضئيل (يزداد اليوم طولا بمقدار  $10 \times 2 \times 10^{-8}$  ثانية كل مائة عام في هذا الزمان)، ويعني هذا أن الأرض حين خلقها (الذي يعتقد أنه حدث منذ حوالي 5 بلايين سنة) كانت تنطلق بطاقة أعلى منها الآن سواء في دورانها حول نفسها أو حول الشمس وبالتالي كانت السنة الشمسية على الأرض أقصر منها الآن، ولا بد أنها في يوم من الأيام (لا نعلمه ولن نعلمه ولا نملك حسابه لأن معدل تقاصر حركة الأرض وتغيره عبر الزمان منذ النشأة مجهول) كانت مساوية للسنة القمرية، وينطبق هذا المنطق مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

(3) تشير الآية إلى حقيقة فلكية، أن 300 سنة شمسية = 309 سنة قمرية، وقد سبقَت الآية (في ذلك) علم الفلك (المنتخب)، يخبر الله تعالى أن الفتية لبثوا في كهفهم . . . ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي وزيادة تسع سنين بالحساب القمري (أيسر التفاسير).

نلاحظ في هذه الآية التعبير: ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ وليس "منذ" خلقها، أي أنها كانت كذلك وقتها طبقاً لحدود التعبير.

#### 6/4 الشمس:

اكتشف العلم الحديث الصدق المعجز لآيات القرآن الكريم، تلك الآيات التي تصف الشمس بصفات حار فيها المفسرون والقدماء: كونها سراجاً مشتعلًا متوهجًا - تقدر درجة حرارتها بقرابة 6000 م° عند السطح، و30 مليون درجة في مركزها:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: 13]<sup>(1)</sup>.

وذلك بالمقارنة بالقمر المنير البارد الذي يقتصر دوره على دور المرآة العاكسة: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16].  
﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: 61].

فصرف المفسرون القدماء معنى "السراج المنير" إلى أن المقصود به مجرد التشبيه لشدة الضياء.

كما أشار القرآن إلى جريها المستمر في الفضاء في اتجاه محدد:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38].

والجري لغة هو: الاندفاع والإسراع في السير (المعجم الوسيط)، وقد تبين أن الشمس تجري بسرعة 1500 كم/ثانية، بالنسبة للنجوم المجاورة لها في المجرة، وتتم دورتها حول المركز في حوالي 200 مليون سنة، كما حددت الدراسات الفلكية ذلك الاتجاه الذي تجري الشمس نحوه في الفضاء. إن عظم الحركة بهذه السرعة الكبيرة لجسم بهذه الضخامة (333 ألف مرة قدر كوكب الأرض) يوضح

(1) السراج: المصباح الزاهر (اللسان)، والمسرجة: ما يوضع فيها الفتيلة والدهن للإضاءة (الوسيط)، الوهاج: الشديد الوهج، من أوهج النار: أوقدها (الوسيط)، وتوهجت النار: توقدت (اللسان)، وفي "السراج" توقد وحرارة وضوء، وهو ما يتوافر في الشمس واختيار كلمة "سراج" دقيق كل الدقة ومختار (الظلال)، وقد ثبت علمياً أن درجة حرارة سطح الشمس المشع 6000° مطلقاً، أما في المركز فتزيد على 30 مليون درجة... وتشع الطاقات فوق البنفسجية (9%) والضوئية (46%) والحرارية وتحت الحمراء (45%) ولذلك عبرت الآية بالسراج الذي يطلق الضوء والحرارة معا (المنتخب).

إعجاز التعبير بالفعل "تجري"، بينما مبلغ ما يراه ويظنه الرائي فوق كوكبنا الأرضي: أن الشمس تتحرك ببطء وتؤدة من المشرق إلى المغرب.  
ولكلمة "مستقر" مدلول زمني أيضاً، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: 29].  
وكذلك عبارة: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الرعد: 2]<sup>(1)</sup>، ويتفق هذا مع ما هو معروف علمياً أن كل النجوم؛ والشمس إحداها؛ تمر بمراحل متتالية إلى نهاية عمرها المحدود.

#### 7/4 القمر:

من إعجاز القرآن في العلوم الفلكية تناوله ما اكتشف في الزمن الحديث من حقائق حول القمر، ومنها طبيعته كجرم بارد عاكس للضوء - خلافاً لحال الشمس "السراج" مصدر الضوء.  
﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: 61]<sup>(2)</sup>.

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: 16].  
خلافاً لما اعتقده الأقدمون في مثل قولهم في تفسير هذه الآية: أن القمر ينبير ما فوقه من السموات وما تحته من الأرض (انظر أيسر التفاسير).  
يتبدل شكل القمر (الظاهر لنا) من هلال إلى بدر وهلم جرا، حسب أوضاعه (منازله) النسبية بالنسبة للشمس وللأرض كما تعبر عنه الآيتان الآتيتان:  
﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 5]<sup>(3)</sup>.

(1) أيضاً آيات (فاطر: 13، الزمر: 5) تشير إلى أن للشمس أجلاً تنتهي عنده، وقد تكون كما يقول علماء الفلك أن الشمس تحرق وقودها من الهيدروجين إلى هليوم، وقد تكون نهايتها بكارثة كونية (المنتخب)، يجريان إلى نهاية الحياة الدنيا فيخسف القمر وتتكدس الشمس (أيسر التفاسير).  
(2) أي أن الشمس سراج وهاج، أما القمر فينبير بضياء الشمس المرتد من سطحه (المنتخب).  
(3) منازل القمر: مداراته التي يدور فيها حول الأرض؛ يدور كل ليلة في أحدها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه (الوسيط)، وهي أوضاعه المختلفة بالنسبة للأرض والشمس وهي التي تنتج عنها أوجه القمر (المنتخب)، والمراد بها سُمُوت بلوغ القمر فيها للناس؛ كل ليلة في سمت منها كأنه ينزل بها (أيسر التفاسير).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39].

القمر أصغر كثيراً من الشمس (قطره أصغر 436 مرة) رغم ما يظهر للرائي على سطح الأرض (يبدو قرص القمر 1.18 مرة قدر قرص الشمس)، وتعالوا نقرأ معا هذه الآيات من سورة الأنعام:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْفَاقِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْتَدِ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ بِرِيءٍ مِّمَّا تَشْكُرُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 75 - 79].

هذا إبراهيم عليه السلام يجول ببصره في السماء لعله يهتدي إلى الخالق العظيم، الذي هو أكبر وأبقى من كل شيء، فيتدرج في التفاته من الأدنى إلى الأعظم شأنًا، فيبدأ بكوكب منير يراه صغيراً يظهر حيناً ثم يختفي، فيلتفت إلى القمر المنير وقد اتسق بدراً يملأ ضياؤه السماء، ولكنه هو الآخر لا يستقر على حال، فينتقل ببصره وفكره إلى الشمس فيراها أكبر من القمر ومن الكواكب، هذا ما كان من شأن إبراهيم وتدرج فكره البشري، أما النص القرآني فقد أشار إلى الشمس فحسب بعبارة "أكبر" ولم يشر بذلك إلى القمر رغم أن قرصه الظاهري أكبر قليلاً من قرص الشمس وأكبر كثيراً (ظاهرياً) من قرص الكوكب، ولكن الحكيم العليم منزل القرآن يعلمنا أن الشمس أكبر من القمر، وأكبر من أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية.

كما بينت آيات القرآن أن القمر التابع للأرض ليس هو القمر الوحيد في الكون الذي يدور حول كوكب تابع له، بل إن ثمة أقمار توابع في مجموعتنا الشمسية رصد العلم منها 59 قمراً تدور حول: المشتري (16)، زحل (16)، المريخ (2)، أورانوس (15)، نبتون (8)، بلوتو (1)، غير ما في أنحاء المجرة وفي الكون على اتساعه من أقمار مصداقاً للتعبير القرآني الجامع:



﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: 15، 16]. إذ يبدو أن القمر في هذه السموات المتعددة (فيهن) اسم لجنس القمر وليس لقمر معين.

#### 8/4 الشهب:

في دقة علمية معجزة يكشف القرآن عن كنه الشهب - وهو ما لم يدركه البشر إلا حديثا - وأنها تنتج عن حركة الأجسام المادية بسرعة خلال الغلاف الجوي للأرض:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ [الحجر: 16 - 18]. وفي ذلك المعنى أيضا جاء في سورة الصافات:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: 6 - 10].

وفي سورة الملك: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: 5].

كما أشار إلى الحقيقة الفلكية المذهلة وهي: امتلاء الفضاء بالشهب حتى إنه يقدر أن جو الأرض يدخله يوميا آلاف الملايين من الدقائق، بسرعة قد تصل إلى 27 كيلو مترا في الثانية (لشهب وزنها 1 ملليجرام)، ولا يمكن رؤيتها إلا بالتلسكوب، وسرعان ما يتحول معظمها إلى بخار بالاحتكاك بالهواء، ومنها ما يرى بالعين المجردة كما يقدر ما يسقط على الأرض بعد احتراقه بمقدار 2500 كيلو جرام يوميا، ولنقرأ في سورة الجن:

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ [الجن: 8، 9].

ونلاحظ في هذه الآية - على لسان الجن - أنهم فوجئوا بزيادة لم يعهدها في الشهب حتى كأنها ملأت سماء الأرض، وقد كشف العلم الحديث قرائن مؤكدة

على أنه كان ثمة كوكب بين المريخ والمشتري، قد انفجر في زمان بعيد، وتفتتت أشلائه لتسبح بلا هدى في الفضاء، وتصيب كواكب المجموعة الشمسية، ويعتقد أن هذه الأشلاء وغيرها ما زالت مصدر الشهب.

وإلى جانب الشهب تدور في الفضاء أجسام على شكل مذنبات يعتقد أنها مادة ثلجية من ماء محمل بالشوائب مداراتها بيضاوية عالية الاستطالة، يقطع بعضها مدار الأرض كل عشرات السنين، أشهرها مذنب هالي، الذي يظهر كل 76 سنة تقريبا ليختفي، آخرها عام 1934، وقرأ قسم الله تعالى بها: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ. الْجَوَارِ الْخُنُسِ﴾ [التكوير: 15، 16]. والخنس: إشارة إلى كل ما يختفي من كواكب ومذنبات.

#### 9/4 رحلات الفضاء:

ينخفض الضغط الجوي بسرعة كلما ارتفعنا في الفضاء — وخاصة إذا كان الارتفاع مسرعا، وتجاوز ثلاثة كيلو مترات أو أعلى، مما يسبب صعوبة في التنفس وضيقا في الصدر، عبر عنه القرآن المعجز في الآية:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

والصعود في الفضاء يخل بتوازن العينين، فتهتز المرئيات كما تهتز بالسُّكَّر المبين، وذلك ما لمسهُ رواد الفضاء فعلا عندما خرجوا من الكبسولة الفضائية في تجارب السباحة في الفضاء، أليس معجزا أن يقرر القرآن ذلك في الآيات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 14، 15] <sup>(1)</sup>.

رغم أن القرآن الكريم، وحي خالق السموات والأرض، يقرر أنه قد يكون في وسع الإنسان من حيث المبدأ أن ينطلق في الفضاء بإذن الله، متى آتاه الله "السلطان" أي القدرة اللازمة من طاقة وتقنية:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدُّوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَفَدُّوا لَا تَتَفَدُّونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: 33-35] <sup>(2)</sup>.

(<sup>1</sup>) سُكَّرَ بصره: أي غشي عليه أو حبس عن النظر أو حير وشخص (الوسيط)، وفي التهذيب: قرئ: سُكَّرَتْ وسُكَّرَتْ، ومعناها أغشيت، وسدت بالسكر فيتخيل بأبصارنا غير ما نرى، وقال أبو عمر والعلاء: مأخوذ من سكر الشراب. الزجاج: يقال سكرت عينه تسكر إذا تحيرت وسكنت عن النظر، أي حبست عن النظر وحيرت (اللسان).

إلا أن هذه الآيات أيضا تنبه إلى الأخطار التي يواجهها الصاعد في الفضاء من شهب ونيازك صلبة ومنصهرة، وأشعة حارقة ومدمرة كالأشعة النووية عامة والأشعة الكونية خاصة، تلك الأخطار التي لم يدركها البشر قبل عصر الفضاء . ومن ناحية أخرى فإنه مهما وقى الإنسان نفسه من هذه الأخطار فهناك استحالة علمية للابتعاد في الفضاء أكثر من مسافة سنين ضوئية (انظر: النسبية) تتناسب مع عمر البشر المحدود، لأنه طبقا للنظرية النسبية لا يتجاوز جسم مادي سرعة الضوء، فلو انطلق إنسان بسرعة الضوء — جدلا — وقضى عمره كله في هذه الرحلة عاش مائة عام فإنه لن يتجاوز واحدا من الألف من قطر هذه المجرة، فما بالك بأقطار سموات الكون، وما بها من بلايين المجرات (3)؟

(2) ثبت حتى الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية . . . لمدة محدودة جدا بالنسبة لعظم الكون . . . ويدل ذلك على أن النفاذ المطلق من أقطار السموات والأرض التي تبلغ ملايين السنين الضوئية لإنس أو جن مستحيل (المنتخب).

(3) يلحظ بعض الباحثين أن الصعود والحركة في السماء يعبر عنها في القرآن بالفعل "عرج" كما في آية الحجر السابقة وكذلك في قوله تعالى:

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [سبا: 2].  
و﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ، تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: 3، 4].  
ومن معاني العرج: الميل أو الانعطاف (المعجم الوسيط)، وذلك يتفق مع ما هو معروف من أن الحركة في الفضاء تتخذ دوما مسارا منحنيا، والأمر يستحق مزيدا من البحث في أصل ومدلولات "العروج" في لغة العرب، وطبيعة حركة المادة والطاقة في الفضاء.

## الفصل الخامس

### في الأرض

#### 1/5 شكل الأرض:

استدارة الأرض حقيقة تنطلق بإعجاز من تعبير: "تكوير الليل على النهار، والنهار على الليل" كما جاء في سورة الزمر:

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر: 5]<sup>(1)</sup>.

فما الذي يُكَوِّرُ إن لم يكن جسماً كروياً؟ والتكوير لغة: اللي واللف وأصله من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها، فتشير الآية بذلك إلى جسم كروي يدور، فيحدث بدورانه الليل والنهار.

ومما يذكر أن من المفسرين المسلمين، مثل البيضاوي والرازي، من استنبط من نص هذه الآية أن الأرض كروية – قبل توافر الأدلة والبراهين العملية. من المعروف أن الأرض كرة غير تامة الاستدارة بل هي بيضاوية بعض الشيء، ويتفق هذا الوصف مع ما جاء في سورة النازعات:

﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات: 30، 31].

ومن معاني الدحية: البيضة.

ومن ناحية أخرى أثبت العلم الحديث أن النسبة بين قطري الأرض تتناقص باطراد، وربما كان ذلك بياناً لما يشار إليه في القرآن بتعبير "نقص الأرض من أطرافها".

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء: 44]<sup>(2)</sup>.

(1) كَوَّرَ الشيء: لفه على جهة الاستدارة (الوسيط)، وتكوير العمامة: لفها وجمعها (اللسان) وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض . . . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار. وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكوراً والليل يتبعه مكوراً كذلك . . . واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع، ويحدد نوع وطبيعة الأرض وحركتها (الظلال).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: 41]<sup>(3)</sup>.

وفي تفسير آخر للمقصود بنقص الأرض من أطرافها يرى بعض العلماء أنه إشارة إلى تباعد القارات والذي بدأ منذ كانت القارات كلها - فيما يعتقد - وحدة واحدة، ثم انشقت عن بعضها في الزمن السحيق ونشأت بينها المحيطات الشاسعة واستمرت في التباعد بمعدل بطيء مطرد حتى يومنا هذا، كما أن الشواطئ تتأكل وتتناقص باستمرار نتيجة عوامل متعددة، وفسره السلف من المفسرين بأنه إشارة إلى اتساع ديار المسلمين نقصا من ديار الكافرين، والله أعلم.

## 2/5 حركة الأرض حول نفسها:

تشير آيات عدة، بعبارات دقيقة، إلى حركة الأرض المستمرة في دورانها حول نفسها، ويأتي القرآن بعبارات علمية محددة المعنى دقيقة المدلول كالاتي:

أ . من "سلخ النهار من الليل":

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ [يس: 37]<sup>(4)</sup>.

فالسَّلَخُ هو: إزالة غشاء من على سطح بفعل حركة تدريجية، الحركة هنا هي حركة الأرض، والغشاء السماوي المنير الذي ينسلخ بإدبار النهار وإقبال الليل هو: الغلاف الهوائي للأرض في الجزء الذي كان مواجهًا للشمس، فهذا الغلاف الجوي يتلقى ضوء الشمس فيشتتته (بفعل ما يحمله من جزيئات وأيونات غازية) فينتشر في أنحائه وتضيئ السماء ويعم

(2) هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فهي تشير إلى أن الأرض ليست كاملة الاستدارة، ولم يتمكن العلماء من قياس أبعاد الأرض بالدقة إلا منذ 250 سنة تقريباً، . . . وتبين أن نصف القطر الاستوائي أكبر من نصف القطر القطبي بحوالي 21.5 كيلومتر (المنتخب)، وانظر تفسير الرعد/41.

(3) تتضمن هذه الآية حقائق وصلت إليها البحوث العلمية الأخيرة، إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها وقوة طردها المركزي يؤديان إلى تفلطح في القطبين وهو نقص في طرفي الأرض، وكذلك عرف أن سرعة انطلاق جزيئات الغاز المؤلفة للكرة الأرضية إذا ما تجاوزت قوة جاذبية الأرض لها فإنها تنطلق إلى خارج الكرة الأرضية، وهذا يحدث بصفة مستمرة فتكون الأرض في نقص مستمر لأطرافها، لا أرض أعداء المؤمنين، وهذا احتمال في التفسير تقبله الآية الكريمة (المنتخب).

(4) سلخ الجلد: كشطه ونزع، وسلخ الله النهار من الليل: كشفه وفصله (الوسيط)، ونسلخ...: كشف عنه النهار، مستعار من سلخ الشاة (المفسر)، تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير (الظلال)،... وفي الآية رمز إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض (الصفوة).

الأرض الضياء طوال النهار، حتى تدور بعيدا عن مواجهة الشمس وهكذا دواليك: ضياء ثم انسلاخ، ثم ضياء ثم انسلاخ، أي أن الأصل في الكون - كما بينته رحلات الفضاء - هو الظلام، أما النور فأمر عارض بفعل الغلاف الجوي وقدرته على نشر ضوء الشمس.

أ. من "إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل":

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 29].  
 (ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) [الحج: 61]

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: 6].

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 27].

وهذا تعبير آخر غاية في الدقة عن: حركة الجزء المظلم من الغلاف الجوي رويدا "داخل" الجزء المنير (إيلاج الليل في النهار) مع إقبال الليل، ويقابلها العكس بالعكس (إيلاج النهار في الليل) في الجزء المقابل من الكرة الأرضية مع طلوع النهار.

وقد فسر البعض<sup>(4)</sup> تبادل إيلاج الليل والنهار بأنه إشارة إلى تبادل طول وقصر ساعاتهما بين الصيف والشتاء وحسب خطوط العرض؛ وهو تفسير بعيد بعض الشيء عن الدلالة المباشرة للنص.

(4) بطول ساعات أحدهما (الشتاء والصيف) وقصرها في الآخر (المنتخب)، حسب الفصول والأمصار... (الصوفة). يدخل ساعات من الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار، ويدخل ساعات من النهار في الليل فيطول (أيسر التفاسير). وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذلك وأخذ ذلك من هذا عند دورة الفصول. . . فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك (الظلال)،

### ج. من "غشيان الليل النهار":

وشبيه بذلك أيضا وصف الليل بأنه: "يغشي النهار":

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

بينما الأقرب إلى تصور العامة أن ضوء النهار هو الذي يغشى الأرض

عند ظهور الشمس. كما تشير هذه الآية إلى سرعة الحركة "حثيثا"؛ وهو ما لا

ندركه بحواسنا إذا راقبنا تتابع الليل والنهار، بينما تدور الأرض حقيقة حول نفسها بسرعة حوالي 1670 كم/ساعة.

### د. من عبارة "التكوير":

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5]<sup>(1)</sup>.

تشير هذه الآية (انظر 1/5) إلى كروية الأرض و دورانها حول نفسها.

### هـ. من "حركة الليل والنهار في الفلك":

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33]<sup>(2)</sup>.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]<sup>(3)</sup>.

(1) انظر تفسير آية الزمر في الهامش ببداية الفصل.

(2) الفلك: المدار يسبح فيه الجرم السماوي (الوسيط)، والسباحة: العوم، وسبح الفرس مد يديه في الجري (الوسيط)، والنجوم تسبح في الفلك: إذا جرت في دوراتها (اللسان)، أي أن كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسباح في الماء (الصفوة). . . كما أن دوران الأرض حول محورها يجعل الليل والنهار يتعاقبان عليها كأنهما يسبحان (المنتخب).

(3) في (أيسر التفاسير) أنه: جيء بضمير الجميع وهما اثنان الشمس والقمر لا غير، لإفادة تعميم هذا الحكم فيشمل الكواكب أيضا، وذلك تأويل لا مبرر له لأن الجمع يشمل حركة الشمس والقمر والحركة النسبية لليل والنهار الناشئ عن حركة الأرض.

الفلك: المسار. مسار الشمس معروف، سواء مسارها النسبي بحركة الأرض، أو مسارها الفعلي في مجرتها، ومسار القمر معروف كذلك في دورانه حول الأرض فما مسار الليل والنهار؟ مسار الليل والنهار ما هو إلا حركة الأرض المنشئة لتتابع الليل والنهار، ويؤكد ذلك أن الفعل "يسبحون" جاء بصيغة الجمع وليست بصيغة المثنى (للشمس والقمر فحسب!).

و . من "تجليه الشمس":

قال تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس: 1-4].

يتبادر للعامّة أن الأرض ساكنة تشرق عليها الشمس كل صباح فيتجلى كل شيء، أي أن الشمس هي التي تجلّى وتظهر كل شيء في النهار، ولكن الآية الكريمة تقول قولاً آخر صريحاً يتفق مع ما يعرفه العلماء: أن النهار (الناجم عن حركة الأرض) هو الذي يظهر الشمس ويجليها للناظرين، كما تعود الآية لتؤكد ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة عن "غشيان الليل" للشمس: أي حجبها نتيجة حركة خارجة عنها.

وفي نفس المعنى أيضاً قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: 67].

ومثلها في سورة الإسراء:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّنَبْتَعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: 12]<sup>(1)</sup>.

أي أن من على وجه الأرض المواجه للشمس نهاراً يبصر الشمس حتى يدور بعيداً عنها - بالمعنى الحقيقي - وليس - كما ذهب بعض القدماء - كناية عن إبصار الناس للأشياء.

(1) روي في التفسير عن بعض السلف أن المراد بالمحو: اللطخة السوداء في القمر ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز الليل عن النهار!!! (أيسر التفاسير).



ز . من "الدحو":

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: 30]<sup>(2)</sup>.

فالدحو لغة: القذف من المقر مع المد والبسط والتوسيع في السطح، لا بد أن ذلك قد حدث للأرض بصورة ما مع بداية انفصالها عن الشمس، وانطلاقها لتدور كالدحية حول نفسها - وقد أصبح شكلها بيضاويا بعض الشيء، لتظل مشدودة في دورانها حول ذلك الجرم الضخم (الشمس) = 109 مرات (حجم الأرض) دورتها السنوية، كما تدور حول نفسها مرة كل يوم وليلة.

ح . من "حركة الجبال":

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88]<sup>(3)</sup>.

ذلك أن الأرض التي نحسبها ساكنة تتحرك؛ بما تحمله من جبال وأتقال؛ بسرعة 1670 كيلو مترا في الساعة حول نفسها، و 53624 كيلو متر في الساعة حول الشمس، وقد انصرف ذهن الأقدمين في فهم هذه الآية إلى "حركة مستقلة" للجبال يوم القيامة، حيث وقعت هذه الآية (88) إلى (90) من سورة النمل التي تكرر فيها ذكر القيامة، ولكن التعبير الصريح في هذه الآية يتحدث عن "الإنقان" في خلق وحركة الأرض، وليس عما يعترينا من خراب وأهوال يوم القيامة، ويدل على ذلك أيضا ما جاء في الآية (86) التي نتحدث عن نعمة خلق الليل والنهار: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: 86]<sup>(4)</sup>.

(2) يقال: دحا الصبي المدحاة أي دفعها (الوسيط).

(3) تقرر هذه الآية أن جميع الأجسام التي تخضع لجاذبية الأرض مثل الجبال تشترك مع الأرض في دورتها: اليومية حول محورها والسنوية حول الشمس، . . . مما يبرهن أن هذا القرآن موحى به من عند الله (المنتخب)، قيل: إن قوله تعالى هو خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) خاصة أطلعه فيه على سر من أسرار الكون ولم يبح به لعجز الناس عن إدراكه في ذلك الزمن وحقيقته: أن الأرض تدور حول الشمس دورة في كل يوم وليلة، ودورها هي تسير معها الجبال فيها قطعاً، فيرى المرء الجبال يحسبها جامدة وهي تمر مع الأرض مرّ السحاب، والمرور غير السير، فالسير يوم الفناء أما المرور يقال: مرّ بفلان يحمله معه ولا يقال سار به. ورشح هذا المعنى قوله بعد (صنع الله الذي أتقن كل شيء) (أيسر التفاسير).

(4) ونسق العرض في هذه الجولة (أواخر سورة النمل) ذو طابع خاص، وهو المزاوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، والانتقال من هذه إلى تلك في اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار (الظلال).

جاءت في سياق آيات القيامة: تذكيراً للناس بنعم الله وفضله في الدنيا، وحسابهم عليها في الآخرة، وتكرراً للانتقال بين مشاهد الآخرة وآيات الخلق أمر مألوف في البيان القرآني لربط الإيمان بالمشاهد المحسوس مع أنباء الغيب البعيد.

ط . من تعبير "المشارك":

﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 137].

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات: 5]<sup>(2)</sup>.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج: 40]<sup>(3)</sup>.

فالمشارك بصيغة الجمع: تعبر عن اختلاف وتوالي المشارق على امتداد الكرة الأرضية نتيجة لدورانها، ولو كانت الأرض ثابتة لكان ثمة مشرق واحد ومغرب واحد - زمانا ومكانا - لكل الأرض.

### 3/5 باطن الأرض:

أشار القرآن الكريم - قبل نشأة الجيولوجيا والتعدين بقرون - إلى ما في داخل الأرض من معادن وثروات وطاقات مسخرة للإنسان: خليفة الله في الأرض، اقرأ قوله تعالى:

(2) وللتعبير "المشارك" دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك. فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب... وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن (الظلال).

(3) إشارة إلى التعدد اللانهائي لمشارك الأرض ومغاربها... فالشمس في كل لحظة غاربة عند نقطة ومشرقة في نقطة أخرى تقابلها (المنتخب).

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: 4]<sup>(2)</sup>.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: 27].

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ [طه: 6]<sup>(3)</sup>.  
ولعل ما جاء في سورة الزلزلة، في معرض الحديث عما يعترى الأرض من أهوال يوم القيامة، إشارة إلى ما يحمله باطن الأرض العميق من أقال: 

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: 1، 2]<sup>(4)</sup>.

فمن أدرك محمدًا صلى الله عليه وسلم بما في قلب الأرض من أقال؟ إن غاية ما كانت تعرفه البشرية عما في باطن الأرض - في ذلك الزمان - هو ما قد يكون من بئر ماء هنا أو هناك.

#### 4/5 مواد البناء:

أنبأ القرآن الكريم عن مصدر لمواد البناء استخدمته أمم سابقة، هو الطوب المحروق الذي يشكل من خامات الطفل - كطمي النيل أو الطفلة الصحراوية - ثم يحرق ليتماسك، وهذا مصدر لم يكن معروفًا قبل القرن الماضي، إلى أن أثبتت الدراسات الأثرية ضمن الآثار المصرية القديمة مباني من اللبن المحروق، التي يعتقد أنها قد شكلت أولًا من طين مخلوط بالقش ثم حرقت بعد ذلك حرقًا ذاتيًا - قبل أو بعد البناء، وأنى للعرب في الجاهلية أن يحيطوا بهذه الفنون، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

[القصص: 38].

#### 5/5 الحديد:

(2) ما يدخل فيها من مطر وأموات، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك (الصفوة).

(3) ما تحت الأرض من معادن ومكونات (الصفوة).

(4) وتخرج ما يتقلها من أجساد ومعادن . . . (الظلال).

اختص الله سبحانه وتعالى الحديد - دون سائر الفلزات والعناصر - بإشارات هامة في القرآن الكريم، منها سورة الحديد التي جاء فيها:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾. [الحديد: 25].

لقد أصبح الحديد العمود الفقري للمنشآت الهندسية وللحضارة، وتشير كل المؤشرات الجيولوجية والمتالورجية إلى أنه سيظل كذلك إلى ما شاء الله في هذا الكوكب الأرضي، والحديد في خاماته أكثر العناصر الفلزية القابلة للاستخلاص انتشاراً (الألومنيوم كعنصر كيميائي في المركبات أوفر من عنصر الحديد، إلا أن الغالبية العظمى للألومنيوم في صورة مركبات ألومينوسيليكات (مادة الطين) المستقرة صعبة الاختزال، ويصعب جداً لاعتبارات فنية واقتصادية وغيرها تحويلها إلى الفلز).

لا توجد خامات الحديد نقية في الطبيعة، بل تختلط - كغيرها من الخامات الفلزية - بالعديد من الشوائب، ولاستخلاص الحديد نقياً يتم أولاً تركيز خاماته لفصل العديد من الشوائب، بغسلها بالماء والمحاليل المائية أو غير ذلك، لتطفو الشوائب على السطح وتفصل بعيداً عن الخام المركز، ويستكمل الاستخلاص بعد ذلك بتسخين الخام مع مادة مختزلة وإضافات مناسبة حتى ينصهر الخليط، فتتفصل الشوائب كطبقة من الخبث الذي يطفو فوق الفلز المصهور، ثم يسكب الخبث ليبقى مصهور الفلز نقياً، وقد صور القرآن كلتا العمليتين (غسل شوائب الخام، وفصل الخبث من الفلز) تصويراً صحيحاً؛ معجزاً لمن نزل فيهم بادئ الأمر، وشبه العمليتين تشبيهاً جميلاً بفعل ماء السيل في إزالة الشوائب من وجه الأرض في الآية:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخْلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾. [الرعد: 17].

ينفرد الحديد عن سائر الفلزات في التنوع الشاسع في خواصه وخواص سبائكه، تبعاً لنسبة الكربون وعناصر الإشابة والمعالجة الحرارية والميكانيكية التي تجري عليه، من لدونة وسهولة في التشكيل ألواحاً وأنابيب وأعمدة ومسامير وغيرها، إلى مرونة كالزنبرك، إلى صلادة الدروع وصلب العدة، وكلها "منافع للناس": آية بليغة معجزة من علم الله تحدى بها المكابرين منذ عصر البعثة إلى عصرنا الحديث.

بمعالجات حرارية معينة تكتسب سبائك الحديد والصلب لدونة وسهولة في التشكيل؛ وذلك ما هدى الله سيدنا داود عليه السلام إليه في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أُوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. [سبأ: 10، 11].

سبائك الصلب خليط من الحديد مع عنصر أو أكثر. هذه العناصر المضافة تغير بنيته الداخلية فتجعله أكثر صلادة أو مقاومة للصدأ أو التآكل أو غير ذلك من خصائص نافعة مطلوبة، ويشير القرآن إلى ذلك الفن بوضوح في قصة ذي القرنين، عندما هداه الله إلى إضافة النحاس المصهور "القطر" إلى الحديد فأصبح صلباً مستعصياً:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 83، 84] <sup>(1)</sup>.

ثم الآيات: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. ءَاتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

[الكهف: 94 – 97] <sup>(2)</sup>.

تتميز الفلزات عادة باللدونة أي بقابليتها للتشكيل – في درجات الحرارة العادية أو بشيء من التسخين، إلا أنها إذا سخنت تسخيناً شديداً ثم بردت تبريداً فجائياً تفقد الكثير من لدونتها فتصبح قصفة – تتكسر أو تتفتت أو تتشقق تبعاً لشدة التبريد، وإلى ذلك يشير القرآن في قصة السامري الذي صنع لبني إسرائيل تمثالاً عجلاً من ذهب، فأمر موسى عليه السلام بتسخين التمثال تسخيناً شديداً "حرقه" ثم تفتيته بالتبريد الشديد في الماء.

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97].

## 6/5 الجبال:

(<sup>1</sup>) يقول المفسرون أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني (الصفوة - المفسر). اختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال... والظاهر أنه كان نبياً يوحى إليه وكان ملكاً حاكماً (أيسر التفاسير).

(<sup>2</sup>) نحاساً مذاباً (القطر) يتخلل الحديد ويختلط به فيزيده صلابة، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته (الظلال).

من الثابت أن للجبال دوراً بالغاً في تثبيت القشرة الأرضية، وكبح ما بداخلها من مصهورات وأبخرة؛ وفي موازنة تأثير الوديان وقيعان المحيطات، ولولاها لتعرضت الكرة الأرضية إلى اضطرابات لا يعلم إلا الله مداها أو منتهاها.

تتركب القشرة الأرضية من طبقة صلبة تمتد إلى عمق 30-40 كم، وهذه الطبقة هي التي نعرف عنها الكثير من خلال الدراسات الجيولوجية، ونستثمرها في تعدين الخامات، وبالقشرة الأرضية طيات وتصدعات تكونت نتيجة الانكماش الشديد للقشرة الأرضية أثناء تجمدها، وتمثل هذه الطيات والتصدعات مناطق عدم استقرار شديدة الحساسية لتحركات المصهورات والأبخرة في باطن الأرض، وهي مصدر الزلازل ومخارج البراكين، ومن هنا كان بروز الجبال - كامتدادات رأسية ثقيلة - معادلاً ومخففاً للإجهادات الناتجة عن هذه الطيات. تأمل الإشارة المعجزة إلى هذه التصدعات في عبارة: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12].

ومن ناحية أخرى فإن دوران الأرض حول نفسها ثم دورانها حول الشمس في فلك مائل على محور الأرض بكل ما تحمله الأرض من أقاليم ومصهورات ومناطق اضطراب، هذا الدوران أيضاً كان كفيلاً ببث الاضطراب في هذا الكوكب لولا دور الجبال ككتل موزعة هنا وهناك على امتداد القشرة الأرضية، ولنتأمل الآن تأكيد الذكر الحكيم لدور الجبال في ترسيّة الأرض:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 15]<sup>(1)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: 31]<sup>(2)</sup> ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10].

## 7/5 سماء الأرض:

وصفت السماء التي تعلو كوكب الأرض بأكثر من وصف علمي معجز منها: أنها طباق تملأ الفضاء، وليست مجرد لوحة مستوية أو قبة مرصعة بالنجوم

(1) ماد الشيء: تحرك واضطرب (الوسيط)، وقال أبو العباس في قوله تعالى: "ان تميد بكم"، فقال: تحرك بكم وتزلزل، وفي حديث علي: فسكنت من الميدان برسوب الجبال (اللسان).

(2) وهي رواسي ذات جذور ممتدة إلى أعماق كبيرة تتناسب مع ارتفاعها، فكانها أوتاد... كما أثبت العلم الحديث أن أسفل الجبال دائماً هش خفيف، وأسفل المحيطات توجد المواد ثقيلة الوزن وبذلك تتوزع الأوزان (المنتخب)، رواسي، أي جبال ثوابت كيلا تميد، أي تتحرك وتضطرب بسكانها (أيسر التفاسير).

## السماء والأرض في القرآن

والكواكب كما كان يتبادر للإنسان البدائي قبل الكشف العلمية، وقد جاءت السماء في مواضع مختلفة للتعبير عن هذه الطباق المتعددة كما في قوله تعالى:

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ [الملك: 3]<sup>(3)</sup>.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: 15].

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبا: 12].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون: 17]<sup>(4)</sup>.

وقد يقصد بالطباق هنا: طبقات الكون الفسيح بامتداد النجوم في المجرات، والمجرات في الفضاء اللانهائي<sup>(2)</sup> وهو ما نرجحه والله أعلم، وقد يقصد به طبقات الغلاف الجوي المحيط بالأرض<sup>(3)</sup>.

سواء كان الغلاف الجوي هو المقصود بالطباق السبع، أو كانت سماء الكون على امتدادها هي المقصودة، وسواء كان الرقم "سبعة" مقصود لذاته أو كان كناية عن التعدد، فإن الحقيقة القرآنية قائمة وماثلة ومحققة: إن كل ما يعلو الأرض من

(3) السماوات السبع لا يمكن الجزم بمدلولها، استقاء من نظريات الفلك، فهي قابلة للتعديل والتصحيح، كلما تقدمت الوسائل، ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشف، . . . ويكفي أن نعرف أن هناك سبع سموات، وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة (الظلال).

(1) الطريق: السبيل يذكر ويؤنث (الصباح)، وفي (اللسان) أطرق عليه الليل: ركب بعضه بعضا (اللسان)، وقد يكون المقصود هنا سبع مدارات فلكية، أو سبع مجموعات نجمية كالمجموعة الشمسية، أو سبع كتل سديمية. . . (الظلال).

(2) إن كان المقصود سماء الكون فلعل السماوات السبع هي على الترتيب: 1- الغلاف الجوي للأرض، 2- الفضاء المحيط بالأرض الذي يسبح فيه القمر مشدودا بجاذبية الأرض وتابعا لها، 3- فضاء المجموعة الشمسية الذي تسبح فيه الكواكب حول الشمس، 4- المجال الذي تجري فيه الشمس بمجموعتها داخل المجرة، 5- الفضاء الذي تشغله مجرة درب التبانة متحركة في الفضاء الفسيح، 6- فضاء الكون المرئي بما فيه من آلاف المجرات، 7- الفضاء اللانهائي الذي لم تزل تتطلق فيه المجرات متباعدة عن بعضها موسعة للكون باطراد إلى ما شاء الله، أو لعلها سبع مجموعات تنتظم فيها آلاف المجرات مما نرى ومما لا نرى (المؤلف).

(3) إن كان المقصود بالطباق طبقات الغلاف الجوي فإنها تختلف عن بعضها البعض في الترتيب وفي تدرج درجة الحرارة بها. أدنى الطبقات هي التروبوسفير، التي تمتد فوق رؤوسنا حتى ارتفاع 10-12 كيلومترا، وفي هذه الطبقة الأولى تنخفض الحرارة باطراد مع الارتفاع. يعلو هذه الطبقة طبقتان يطلق عليهما مجتمعين الستراتوسفير: الطبقة الأدنى حتى ارتفاع 20 كيلومترا تتميز بدرجة حرارة ثابتة بينما تزداد الحرارة مع الارتفاع في الطبقة الأعلى حتى ارتفاع 45-50 كيلومترا، أما الطبقة الرابعة "الميزوسفير" فتعود فيها الحرارة للانخفاض باطراد حتى ارتفاع 80-85 كيلومترا، وهنا ينعكس التدرج الحراري منذ بداية الطبقة الخامسة "الثيرموسفير"، ومن خلال هذه الطبقة الخامسة تبدأ - إذا ارتفعنا قليلا فيها - طبقة جديدة تتميز بتأين كل ما فيها من غازات نتيجة التأثير الشديد - دونما حائل - للأشعة فوق البنفسجية من الشمس، ويطلق على هذه الطبقة السادسة: الأيونوسفير، وهذه الطبقة أيضا هي التي يبرز فيها تفاعل الأوزون، وبنهاية هذه الطبقة التي تمتد حتى ارتفاع 500 كيلومترا تأخذ الغازات تدريجيا في النذرة الشديدة إلى الفضاء المطلق، وتسمى هذه الطبقة السابعة: الإكسوسفير (المؤلف).

سماء أو سموات إنما هو طبقات فوق طبقات. وصدق الله العظيم الذي وصف هذا

التركيب العظيم المحكم "بالبناء":

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].  
﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بِنَاهَا. رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 27، 28].  
﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: 12].

ومن الأوصاف الأخرى المعجزة للغلاف الجوي "السماء" وصفه بلفظ "ذات الرجوع" أي ترجع بخار الماء مطرا، وترجع الأجسام بالجاذبية، وترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها من طبقة الأيونوسفير، كما ترتد منها الأشعة الحمراء فتدفع الأرض ليلا، وترجع بخار الماء من المسطحات المائية مطرا تكثف: ﴿وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: 11].

ومن الإعجاز أيضا وصف الغلاف الجوي "بالسقف المحفوظ": الذي تحفظه الأرض بالجاذبية - وللجبال في ذلك شأن طبقا لبعض الآراء - ليحفظ هو بدوره أكسجين الحياة؛ وثاني أكسيد الكربون اللازم لعمليات التمثيل الكلوروفيلي وتكوين الغذاء بالنبات؛ وبخار الماء لدورة المطر، ولولا حفظ الغلاف الجوي بالجاذبية لتسرب كل الهواء إلى الفضاء الخارجي، ولما كانت حياة - كما هو الحال في كثير من الكواكب: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32]<sup>(4)</sup>.

الغلاف الجوي كذلك يحول دون تسرب الحرارة من الأرض إلى الفضاء الكوني الشديد البرودة حولها، وخلال الغلاف الجوي ينتشت ضوء الشمس ويتوزع، فنرى السماء مضيئة ويعم ضياؤها ربوع الأرض، بينما الفضاء الخارجي مظلم مظلم، تُرى فيه الشمس كمصباح بعيد معلق في ظلمة السماء، ومن آيات الغلاف الجوي للأرض أخيرا أنه يحفظها من الشهب التي تحترق خلاله، ومن الأشعة الكونية التي تهلك الزرع والضرع، وصدق الله تعالى في قوله:

(4) والسماء تبدأ بالغلاف الجوي الذي يحمي الأرض من الشهب والنيازك والأشعة الكونية، وتحفظ به الأرض بقوة الجاذبية (المنتخب).



﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾.

وهذا الغلاف الجوي مستمر متصل لا انفراج فيه (إلا ما قد يطرأ عليه

بسبب سوء استخدام البيئة كتقرب الأوزون)، كما عبر بذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾

[ق: 6]<sup>(1)</sup>.

ولعل من الإشارات القرآنية إلى هذا الغلاف المتصل أيضا، في معرض الحديث عن أحداث يوم القيامة، الإشارة إلى كشط السماء، أو انشقاقها، أو انفطارها كما في الآيات:

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11]<sup>(2)</sup>.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1].

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1].

## 8/5 السحاب والمطر:

حدد التعبير القرآني في دقة بالغة مراحل نشأة السحاب وسقوط المطر، فيما يعرف باسم الدورة المائية، بصورة تقطع باستحالة أن تكون هذه المفاهيم نابعة من عقل بشر حين نزول القرآن. يحمل الهواء الجوي بخار الماء المنطلق من المسطحات المائية الشاسعة، محيطات وبحارا وأنهارا، ومن تنفس النبات والحيوان، وتزداد رطوبة الهواء أو تنقص حسب الظروف الحرارية والبيئية، حتى إذا بلغت حد التشبع ظهرت في صورة ضباب، أو تكثفت في صورة ندى أو صقيع، ولكنها لا تتجمع لتصير سحaba إلا إذا وجدت أنوية مشحونة بالكهرباء تتجمع حولها وتتكاثر، ولا يتسنى ذلك إلا بفعل الرياح: فالرياح هي التي "تثير"

(1) الفرج: الشق بين الشينين (الوسيط) والخلل بين الشينين (اللسان).

(2) كُشِطَتْ: أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة (الصفوة).

(3) فتثير سحابا: بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء على الأرض (الظلال).

(4) تثيرها من البحار (الظلال).

(5) ولكن السياق هنا يشير إلى أنها لواقع بالماء دون سواه . . . وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبيات

(الظلال)، سبقت هذه الآية ما وصل إليه العلم . . . كما لم يعرف العلم إلا في أوائل القرن الحالي أن

الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر إذ أن نويات التكاثف . . . تحملها الرياح إلى مناطق إثارة

السحاب، وقوام النويات أملاح البحار وما تذروه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة وكلها

لازمة للمطر (المنتخب).

نوى التكاثف من سطح الأرض، أو بالاحتكاك بموج البحر. تأمل قوله تعالى في تأكيد أن الرياح هي التي تثير السحاب بادئ ذي بدء:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: 48]<sup>(3)</sup>.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَسْقِيهِ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9]<sup>(4)</sup>.

ومرحلة إثارة السحاب – بتعبير الآيتين كما هو في الواقع – مرحلة مستقلة تسبق نشره في السماء وانتقاله من مكان إلى آخر، ثم تأمل الآية: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: 22]<sup>(5)</sup>.

والآية تحدد دور الرياح في تجميع "اللواقح" التي هي نوى التكاثف، ولقد فسرها الأقدمون خطأ بأنها تشير إلى حمل حبوب اللقاح للنبات، وذلك – وإن كان صحيحا علميا – ليس المقصود بالآية، التي تربط مباشرة بين التلقيح وبين إنزال المطر من السماء.

وللرياح دور آخر أساسي في تكوين السحاب المطير، هو تأليف السحاب المشحون بالكهرباء السالبة أو الموجبة، بعضه إلى بعض، فيتجاذب ويتجمع وينمو ليصبح "سحابا ثقالا" كما في الآيتين:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: 12، 13].

ويلاحظ في هاتين الآيتين الترتيب الدقيق للأحداث:

(1) الشرارة المضيئة (البرق).

(2) ابتلاع السحاب الثقال.

### (3) صوت الرعد.

وتأليف السحاب هذا قد نصت عليه الآية التالية المعجزة:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ [النور: 43]<sup>(1)</sup>.

والسحاب نوعان: نوع يمتد أفقياً "السحاب البساطي الطبقي"، وآخر يمتد رأسياً كالجبال "السحاب الركامي"، لم يدرك البشر ذلك الامتداد الرأسي لجبال السحاب إلا بالرصد بالطائرات وغيرها من وسائل الرصد الجوية الحديثة، ويميز التعبير القرآني – في بلاغة علمية معجزة للبشر عبر القرون قبل الاكتشافات الحديثة – بين النوعين بتعبري: "يبسطه في السماء" للنوع الأول في آية (الروم: 48)، وتعبر "يجعله ركاماً" للنوع الثاني في آية (النور: 43).

تحمل الرياح السحاب إلى أعلى فيبرد بخاره شيئاً فشيئاً، وذلك بفعل التمدد "بسبب تخلخل الضغط في طبقات الجو العليا"؛ وكذلك بتأثير الاقتراب من قمم الجبال الشاهقة الباردة، ويتجمد بخار الماء إلى ثلج كما يتجمد الماء المكثف إلى جمد، فتتشأ حبات البرد البلورية التي تتردد صعوداً وهبوطاً بفعل الشحنات الكهربائية وعوامل ميكانيكية، وفي أثناء ذلك تكتسب حبات البرد شحنات سالبة في بعضها وموجبة في بعضها الآخر، مما ينتهي بها إلى تجاذب شديد واتحاد، يصحبه تفرغ كهربائي مفاجئ يحدث وهجا شديدا هو "البرق"، وصوت فرقعة هو "الرعد"، وتؤكد آية (النور: 43) أعلاه الارتباط بين تكون البرد وبين شرارة البرق في السحاب الركامي " . . . من برد فيصيب . . . يكاد سنا برقه يخطف بالأبصار" وهو ما أكدته العلم الحديث.

بنمو حبات البرد تتقل إلى الحد الذي يجعلها تسقط إلى الأرض، لتصيب به من يشاء الله، أو تنصهر أثناء هطولها فتصير ماء منهمرا.

(1) الركام ما اجتمع من الأشياء وتراكم بعضه فوق بعض (الوسيط)، ووصف السحاب بالجبال الضخمة الكثيفة . . . كما يبدو لراكب الطائرة . . . تعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس، إلا بعد ما ركبوا الطائرات (الظلال)، وإذا لم تكن تلك الطائرات في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يكون ذلك دليلاً على أن هذا الكلام من عند الله العظيم، كما تسبق هذه الآية ركب العلم، فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها . . . كما أنها وحدها التي تجود بالبرد وتشحن بالكهرباء . . . وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة . . . فيذهب ببصر الراصد . . . عين ما يحدث للملاحين والطيارين (المنتخب).

ولا يفوتنا هنا أيضا أن نلاحظ دقة التعبير في نزول الودق "المطر" من داخل السحاب "من خلاله"، وليس من سطحه السفلي المواجه للأرض كما يتبادر لمن لا يعلم.

## 9/5 الماء:

كلما تقدم العلم كلما استبان للإنسان حيوية الدور الذي يلعبه الماء في حياته، وأهميته لمستقبله، وما هو عصر التكنولوجيا - كما يقولون - يقف حائرا أمام مشاكل الجفاف والتصحر ومستقبل مصادر المياه، لقد أشار الخالق العليم إشارات علمية معجزة ومتكررة تتعلق بالماء، فالماء أساس الحياة لكل الكائنات على وجه الأرض، الإنسان والحيوان والنبات، وفي أعماق البحار "الأسماك والنباتات البحرية"، وفي جوف الأرض "البذور والجذور والبكتريا وديدان الأرض"، وفي عنان السماء "الطيور والحشرات"، فكل العمليات الحيوية داخل هذه الكائنات كالتنفس وتمثيل الغذاء وامتصاصه والتناسل والإخراج - إنما تتم في وسط مائي أو رطب كما قرر المولى عز وجل:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30]<sup>(1)</sup>.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: 45]<sup>(2)</sup>.

المطر من السماء مصدر لكل مصادر المياه في الأرض فهو مصدر الأنهار ومصدر المياه الجوفية، ومصدر الينابيع، هذه الحقيقة التي لم يعرفها العلم الحديث إلا مؤخرا على يد بليسي عام 1570 م، سبق القرآن الكريم بها في الآية:

(1) تقرر (الآية) حقيقة علمية: أن الماء هو المكون الهام في تركيب الخلايا ولحدوث جميع التحولات والتفاعلات، ولكل وظائف الأعضاء (المنتخب)، هذا من أغرب معجزات القرآن، فإن العلم يقرر ذلك حرفيا (المفسر).

(2) الآية لم تسبق فقط ركب العلم في بيان نشوء الإنسان من النطفة بل سبقته كذلك في بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريق التناسل من الحيوانات المنوية. . . وكذلك أن الماء قوام تكوين كل كائن حي وأكثر ضرورة من الغذاء وأساس تكوين الدم وكل سوائل الجسم (المنتخب).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرَاهُ مُشْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 21]<sup>(3)</sup>.

بينما ظل البشر - حتى زمان قريب - يتخبطون في مصادر المياه الجوفية ومصادر الأنهار، التي ظنوها شيئاً منفصلاً عن مطر السماء، وচারوا أيضاً في فهم حقيقة التعبير القرآني، وسادت نظريات هي أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة القرآنية التي أدركها البشر حديثاً.

﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات: 30، 31].  
المصدر الأول للمياه على وجه الأرض هو ما تكثف فيها عند نشأة الأرض، وظهر على هيئة مسطحات مائية لمحيطات وبحار بدأت بها دورة التبخر والسحاب والمطر وهلم جرا، كما تنطق بذلك آيات سورة النازعات (انظر أيضاً موضوع: شكل الأرض).

ومن المعارف التي أشار إليها القرآن الكريم أيضاً: استحالة اختلاط مياه البحار بمياه الأنهار عند التقائهما في المصببات، كالتقاء نهر النيل بالبحر الأبيض عند كل من دمياط ورشيد، حيث كان <sup>(4)</sup> يشاهد خط فاصل يرى رأى العين بين الماء العذب المحمل بالظمي وبين ماء البحر (الأزرق)؛ أو في أحوال أخرى عند التقاء نهري نال و عذب، كالتقاء نهري "الكنج" و "الجامونا" في مدينة "الله آباد"، والتقاء نهري سيران متلاصقين، أحدهما عذب والآخر ملح، بين مدينتي "تساتام" و "بنجلاديش" و "أركان" ببورما، وكذلك عند التقاء بحرين مالحين مثلما يرى عند التقاء مياه البحر الأحمر بمياه المحيط الهندي عند باب المنذب، وترجع هذه الظاهرة إلى خاصية الانتشار العشائي "الأسموزي" التي تدفع جزيئات الماء العذب إلى الانتشار "داخل الماء المالح وليس العكس" عبر السطح الفاصل بينهما "الحاجز أو البرزخ"، كما جاء في الآيات:

(3) الينبوع: عين الماء (الوسيط) من: ينبع تفجر (اللسان)، ولم تعرف دورة المياه في الطبيعة إلا حديثاً، حيث أن الفكرة التي كانت سائدة قبل ذلك كانت تقول إن ماء العيون والأنهار يتفجر من باطن الأرض أتياً إليه من حفر وأبار في قيعان البحار (المنتخب)، وقديماً قال المفسرون في تفسير الآية: وهذا دليل على أن ماء العيون من المطر . . . قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا أنزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره (الصفوة)، فسلكه: أي أدخله في الأرض وأخرجه منها ينابيع بواسطة حفر وبدونه (أيسر التفاسير).  
(4) قبل بناء السد العالي بأسوان.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 53]<sup>(1)</sup>.

﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 61]<sup>(2)</sup>.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 19، 20].

ثم نوه الخالق العليم بحفظه للماء في هذا الكوكب الأرضي في دورة لا

تتقطع:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: 30].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾

[المؤمنون: 18].

وهذه حقيقة قد كشف العلم الحديث مغزاها، فلو لا الغلاف الجوي وما فيه من آيات مبهرات (انظر الغلاف الجوي) ودورة السحاب والمطر لضاع الماء في الفضاء ولأصبح كوكب الأرض - كـ بعض الكواكب الأخرى - جافا قاحلا، ولو لا طبيعة الأرض التي تسمح صخورها بتخزين المياه الجوفية في خزانات شاسعة في باطنها لتسرب الماء وذهب بددا في الأعماق، وفي هذا الصدد أيضا تجدر الإشارة إلى معجزة بقاء ماء البحار والمحيطات دون تجمد، إذ يطفو الثلج المتجمد فوقها فيحفظ بقية الماء من التجمد، ويحفظ حياة الأسماك والأحياء البحرية، وتستمر فيه الملاحاة، ويرجع ذلك إلى خاصية وهبها الله الماء - دون سائر المواد الأخرى - أن كثافته تقل بالتجمد "لا تزيد كغيره" أي أن كثافة الثلج أدنى من كثافة الماء السائل.

من حقائق العلوم أن هطول المطر يسبقه - كما أشرنا - تفريغ كهربائي في السحاب مصحوبا بالشرارة المعروفة باسم البرق، هذه الشرارة كانت كفيلة أيضا بإفساد الماء، بتكوينها لحمضي النتروز والنتريك نتيجة لاتحاد أكسجين ونتروجين

(1) البرزخ: الحاجز بين شيئين (الوسيط واللسان).

(2) إن هذا الحاجز ليس جسما غير الماء. إنما هو تفاوت الثقل النسبي لاختلاف أجزاء الماء المركب منها الماء المالح والماء العذب، فالحاجز حاجز من طعيميها وليس جسما آخر فاصلا بينهما.

الجو (إلى ثالث وخامس أكسيد النتروجين)؛ لولا المشيئة الربانية، ولعل ذلك تفصيل لقوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : 86 – 70]. والأجاج هو : الذي يلذع الفم بمرارته وملوحته.

ومن ناحية أخرى فإن دورة الماء بين البحار المالحة والبحار فالحسب فالمطر تفصيل آخر لهذه الآية، فلو لم تتبخر مياه البحار بادئ ذي بدء لصار كل ما على الأرض في نهاية المطاف ماء أجاجا.

## 10/5 الأنهار:

تتبع الأنهار من الجبال، إذ يصطدم بها السحاب الذي تسوقه الرياح فيزداد برودة وينعكس إلى أعلى، حيث يبرد كثيرا بفعل الارتفاع في طبقة التروبوسفير (انظر الغلاف الجوي) وبفعل القمم الباردة فتسقط حمولة السحاب مطرا يسيل على سفوح الجبال، وكلما ارتفع الجبل وشمخ كلما تهيأ له أن يكتسي بالثلوج، التي يذوب أداها أولا بأول ليزود الأنهار بنبع دائم للمياه. تلك الثلوج تكسو الجبال الشامخة، بما فيها الجبال الاستوائية، إلا أن الارتفاع الملائم أو المطلوب لتكوين الثلوج يقل كلما ابتعدنا عن خط الاستواء، فبينما تتجمع الثلوج هنالك ابتداء من ارتفاع خمسة كيلومترات أو أكثر؛ يقل الارتفاع المطلوب تدريجيا إلى 4 كيلومترات عند المدارين ثم إلى 2 كيلومترا عند خط عرض 50° (شمالا أو جنوبا) حتى ينمحي تماما ابتداء من خط عرض 70° حتى القطبين، أرايت كيف يقترن شموخ الجبال بنبوع الأنهار؟ اقرأ قوله تعالى مشيرا إلى هذا الاقتران:

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: 27]<sup>(1)</sup>.

وسبح بعظمة الخالق العليم: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: 255].

(1) "رواسي شامخات": ثابتات سامقات تتجمع على قممها السحب، وتتحد منها مساقط الماء العذب... (الظلال)، كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال قبل... العلم الحديث (كالأوتاد)، ونعمة أخرى: نشوء السحب فوقها، وهطول الأمطار والثلوج عليها، فتتكون بسبب ذلك الأنهار والعيون،... فالجبال مخازن للثلوج والأمطار... فلماذا قرن تعالى بها نعمة المطر، قلله ما أبدع أسرار القرآن (الصفوة).

## 11/5 البحار:

أثبتت البحوث الحديثة باستخدام تلسكوبات دقيقة أن أعماق البحار والمحيطات ليست ساكنة، بل تموج بأمواج وتيارات أظلم وأكثف مما بسطحه، وصدق الله العظيم في دقة وصف القرآن الكريم للبحر، عندما اتخذته مثلاً لظلام العقول الجاحدة الكافرة في هذه الآية:

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: 40]<sup>(2)</sup>.

يعزى تكون البحار والمحيطات إلى ما حدث في قديم الزمان من تغير في شكل الأرض: من كرة تامة إلى شكل بيضاوي "دحوها"، صحبه انفصال القارات ثم تباعدها وامتلاء ما بينها بالمياه، وتتفق هذه الفكرة مع الآية التي تربط بين دحو الأرض وانتشار المسطحات المائية:

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات: 30، 31]. يستخرج اللؤلؤ من البحار المالحة منذ القدم، أما المياه العذبة فلم يكتشف فيها اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة إلا حديثاً، ليتأكد البشر من صدق ما قرره الوحي القرآني في قوله تعالى:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِنَبِّئُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: 12]<sup>(3)</sup>.

(2) تجمع هذه الآية أهم ظواهر عواصف البحار، فالمعروف أن عواصف البحار العميقة أو المحيطات تنطلق فيها أمواج مختلفة الطول أو السعة أو الارتفاع بحيث يبدو الموج منطلقاً في طبقات بعضها فوق بعض، فيحجب ضياء الشمس لما تنتيره هذه العواصف من سحب سميكة تحجب ضوء الشمس ويخيم معها الظلام في سلسلة من عمليات الإعتام، . . . ولما كانت نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم في البادية، فإن ورود الدقائق العلمية على لسانه وحيا من الله دليل على أن القرآن الكريم من عند الله، وعلى أنه معجزة هذا الرسول الكريم (المنتخب).

(3) بدهى أن بعض الحلي من البحر المالح، وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدراً للحلي أيضاً ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك؛ فاللؤلؤ يستخرج من صدفيات الأنهار في المياه العذبة، والمعادن العالية الصلابة كالماس . . . في رواسب الأنهار الجافة المعروفة باسم البرقة . . . والياقوت . . . والأحجار شبه الكريمة للزينة: التوباز، والزركون . . . يقارب خواص الماس (المنتخب).



﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْثُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: 19 – 22]<sup>(4)</sup>.

يوجد اللؤلؤ في أنهار عذبة في كل من إنجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا وغيرهما، كما يستخرج الماس من رواسب بعض الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة، كما يوجد الياقوت في الرواسب النهرية في "موجوك" في بورما العليا، وكذلك في سيام بالهند وفي سرى لانكا، كما يوجد التوباز في الرواسب النهرية بالبرازيل والأورال وسيبيريا، وكذلك الزركون الذي تستخدم بعض رواسبه النهرية كأحجار كريمة.

## 12/5 الزراعة:

من الحقائق الجيولوجية الدقيقة أن التربة الطينية الساكنة، إذا ما ابتلت بالماء تمددت إلى أعلى وتشققت، فيهتز أسفلها ويتحرك بجذور النبات وشعيراته، فانظر الدقة المعجزة في تطابق ذلك مع وصف الآية:

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

[الحج: 5]<sup>(4)</sup>.

وما كان لدى الأقدمين وسائل لمراقبة التربة، وما يطرأ عليها من تغيرات دقيقة. الطين جسم مسامي من حبيبات مادة "الطفل" مع نسب مختلفة من حبيبات الرمل والجير وغيرها، وعند رى الأرض يتخلل الماء المسام ليملأها، حتى إذا فاض عن حاجتها اتسعت المسام بالماء الزائد فتمدت التربة من أسفل، فاهتزت اهتزازا لا تراه العين المجردة، وتشققت. تهتز الأرض كذلك بحركة الجذور والشعيرات الجذرية في كل اتجاه سعيا وراء الماء الذي جاءها بعد همود، كما تزداد حركة دودة الأرض وتتكاثر، ودودة الأرض هذه قد تصل أعدادها في التربة إلى 50000 في الفدان، ولها دور حيوي في تهوية التربة وفتح مسامها - وكذلك في دورة النتروجين بين الجو والتربة (انظر دورات الحياة)، كل ذلك يؤدي إلى اهتزاز التربة ونموها، ثم إلى نبت جديد.

(4) قبل اكتشاف الأحجار الكريمة في الأنهار العذبة أول المفسرون القدامى عبارة (يخرج منهما): أي من مجموعهما، الصادق بأحدهما وهو الملح (انظر أيسر التفسير).  
(1) "اهتزت وربت" وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالترربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تشرب الماء وتتفخ فتربو... (الظلال).

## السماء والأرض في القرآن

تختلف التربة الزراعية في مكوناتها من حبيبات مختلفة وما بها من مواد عضوية وكائنات حية دقيقة تؤثر جميعا في قابلية الأرض للزراعة وفي جودة محصولها، وتختلف في ذلك من موضع إلى موضع، وهذا ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4]<sup>(2)</sup>.

كما نوه القرآن بمزايا الأرض الزراعية المرتفعة "الروابي" التي كشفها العلم الحديث؛ حيث تزداد إنتاجيتها لبعدها عن المياه الجوفية مما يضاعف شعيرات الجذور الماصة للغذاء:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: 265]<sup>(3)</sup>.

وكذلك قد ثبت علميا أن القمح وغيره من الحبوب يتعرض للتلوث في الهواء الجوي عند تخزينه طويلا، وذلك بفعل الرطوبة وغيرها، وقد وجد أن أنجح الوسائل لحفظه إبقاءه على السنبال، وهو ما قرره الهادي العليم في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، والذي أوحى إليه الله ذلك، عندما وكل إليه أمر الزراعة في مصر – تحسبا لسنين جدد النيل المعروفة "بسنى يوسف":

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: 47]<sup>(4)</sup>.

(2) تشير الآية إلى علوم الأراضي والبيئة وأثرها على صفات النبات فمن المعروف علميا أن التربة الزراعية تتكون من حبيبات معدنية مختلفة المصدر والحجم والتركيب، ومن الماء . . . والهواء . . . ومن المادة العضوية التي يرجع وجودها إلى بقايا النبات والأحياء الأخرى التي توجد على سطح التربة أو في داخلها، فضلا عن ذلك فتوجد ملايين الكائنات الحية الدقيقة لا ترى بالعين المجردة لصغر حجمها وتختلف أعدادها من عشرات الملايين إلى مئاتها في كل جرام من التربة السطحية الزراعية . . . فالأرض كما يقول الزراعيون بحق تختلف من شبر إلى شبر (المنتخب).

(3) في تعبير القرآن الكريم بكلمة ربوة وهي الأرض الخصبة المرتفعة إشارة إلى ما كشفه العلم الحديث، لأنها بارتفاعها تبعد عن المياه الجوفية فيغوص المجموع الجذري في التربة – من غير ماء يضره – ويتضاعف عدد الشعيرات الماصة فيتضاعف المحصول . . . (المنتخب).

(4) تتفق مع ما وصل إليه العلم أن ذلك وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يقيه محافظا على محتوياته الغذائية كاملة (المنتخب).

### 13/5 وسائل الانتقال:

في معرض حديثه عن تسخير الدواب في النقل أنبأ المولى عز وجل أنه سيسخر لنا المزيد من الوسائل التي لم يصل إليها علمنا بعد (ويخلق ما لا تعلمون).  
﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل: 8، 9] <sup>(3)</sup>.

### 14/5 الوقود:

في القرآن الكريم أكثر من إشارة إلى العلاقة بين الشجر الأخضر وبين الطاقة أو النار، حيرت المفسرين القدماء، وهناك أكثر من اجتهاد علمي لتفسير هذه الآيات، وكل منها يؤكد إعجاز النص القرآني، وأقرب الاجتهادات إلى الحقائق العلمية المعروفة أن الشجر هو المصدر الأساسي للتكوين الجيولوجي للفحم وزيت البترول، ومنها أن الشجر الأخضر بالذات (أوراقه) بما فيها من مادة الكلورفيل هو الوحيد القادر على امتصاص طاقة الشمس (المصدر الأم للطاقة على الأرض) أثناء عملية التمثيل الضوئي، والتي تبني فيها خلايا الشجر من ثاني أكسيد الكربون والماء، لينمو قبل استخدامه وقودا بذاته، أو بصورة المتحولة بعد أجيال طوال كالفحم أو الزيت، والشجر الأخضر أيضا مصدر نوع "لا ينضب" من الطاقة المتجددة، وهو الوقود الحيوي، الذي يتم إنتاجه من النباتات ومن الفضلات النباتية، وهو مصدر دائم متجدد بإذن الله:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: 80] <sup>(4)</sup>.  
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ [الواقعة: 71، 72].

<sup>(3)</sup> ويخلق ما لا تعلمون . . . ليظل المجال مفتوحا في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة، فلا يغلق تصورهم . . . ولقد وجدت وسائل . . . لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان، وستجد وسائل (الظلال)، ويخلق لكم ما لا تعلمون من تسخير قوى البخار والكهرباء وغيرهما، وهذه من أغرب معجزات القرآن، فإن فيها تنبؤا صريحا بما اخترع في القرنين التاسع عشر والعشرين (المفسر)، وسيخلق ما لا تعلمون من وسائل الركوب وقطع المسافات، مما سخره الله لبني الإنسان، إذا استخدم عقله وفكر به واهتدى إلى استخدام كل القوى (المنتخب)، ما لا تعلمون: من سائر الحيوانات، ومن المركوب هذه السيارات على اختلافها والطائرات والقطر السريعة والبطينة (ايسر النفاسير).

<sup>(4)</sup> طاقة الشمس . . . في النبات بالتمثيل الضوئي في وجود الكلوروفيل (المادة الخضراء) تحول ثاني أكسيد الكربون إلى الكربوهيدرات، ومنها يتكون الخشب. . . ومنه الفحم النباتي، ومنه يتكون الفحم الحجري بالحرارة والضغط (التحلل إلى الكربون) . . . ذكر الاخضرار ليس عفوا بل إشارة إلى الكلوروفيل (المنتخب).

## الباب الثالث القرآن وعلوم الحياة

### الفصل السادس في الكائنات الحية

#### 1/6 عالم الحيوان:

أثبتت دراسات علم الحيوان صحة ما أشار إليه القرآن، من أن مجتمعات الحيوانات تسودها أسس ونظم حياة – كمجتمعات البشر، حتى إن علم الحيوان يقسم المملكة الحيوانية إلى رتب، والرتب إلى فصائل ثم إلى أجناس ثم إلى أنواع، وما زال العلم يكشف المزيد من هذه الأمم برا وبحرا وجوا، مصداقا لقوله تعالى:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّا لَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]<sup>(1)</sup>.

ومن ناحية أخرى نبه القرآن إلى أنه – بجانب ما كان معروفا من الحيوانات التي تمشي على أربع أو على رجلين أو تزحف على بطنها – فهناك ثمة أنواع أخرى قد يهتدى الإنسان لتركيبتها فيما بعد، كالحشرات التي تمشي على ستة أرجل كالذباب والنمل والبعوض، أو على ثمان كالعنكبوت وغيرها كثير، مما هو أصغر وأدق، وهو ما لم يتيسر إدراكه إلا بالوسائل الحديثة كالفحص المجهرى بالمجاهر البصرية والمجهر الإلكتروني، تدبر قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: 45]<sup>(2)</sup>.

والمتمأمل في سلوك الحيوانات والطيور والأسماك والحشرات وغيرها يرى كيف ألهمها الله التعايش والتفاعل مع غيرها من الكائنات؛ وإلى التكيف مع البيئة لتبقى وتتكاثر، بل يرى أيضا كيف ألهمها الله التخاطب فيما بينها بإصدار أصوات أو ذبذبات؛ أمكن تسجيل بعضها بقدر ما تتيحها أجهزة قياس الذبذبات؛ ثم الاجتهاد في فك رموزها وتفسير معانيها:

(1) وهي حقيقة هائلة، لا تستطيع ملاحظاتهم وحدها حينذاك – حيث لم يكن لهم علم منظم – أن تشهد بها: حقيقة تجمع الحيوان والطيور والحشرات من حولهم في أمم (الظلال)، تنتظم الكائنات الحية في مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية وطباع مميزة... وهذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمق في دراسة نوع منها (المنتخب).

(2) "يخلق الله ما يشاء": إذ بعض الحيوانات لها أكثر من أربع (صفوة التفاسير).

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]<sup>(3)</sup>.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: 2، 3]<sup>(4)</sup>.

ويتجلى هدى الله لكائناته، وإعجاز قرآنه في إشاراتِه عند التأمل في عالم النمل وعالم النحل.

## 2/6 النمل:

توصل علماء الحيوان إلى معرفة الكثير من أوجه الشبه بين سلوك النمل و سلوك الجماعات الإنسانية: التعاون في بناء البيوت وفي شق الأنفاق؛ وفي ادخار الطعام في الصيف تحسباً لفصل الشتاء، وقضم طرف البذور حتى لا تعاود الإنبات وتتلف لو تسرب إليها مطر الشتاء، ثم اللغة والتخاطب؛ التي كشفتها تجارب حديثة، حيث راقب أحد العلماء مجموعة من النمل عثرت إحداها على جثة ذبابة، فأخذت تدور حولها وتتحسسها وتحاول رفعها لعدة دقائق، ثم تركتها وسارت بعيداً حيث قابلت أكثر من نملة، كانت تتوقف عندها كأنها تحدثها، وفي آخر المطاف عادت ومعها مجموعة حاشدة من النمل، تعاونت في رفع الذبابة من مكانها وحملها بعيداً إلى مساكنهم. قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 18، 19].

ذلك ما كان من شأن سيدنا سليمان الذي علمه الله كيف يفهم لغة كثير من الكائنات:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 16].

## 3/6 النحل:

حكى القرآن عن نظامه الدقيق وعمله الدعوب، ودورة غذائه على مختلف النباتات، ليخرج العسل أنواعاً وأنواعاً، كما أشار إلى إلهام المولى تعالى للنحل أن تجمع الرحيق من مختلف الأزهار والثمار، ثم تحوله في داخلها إلى عسل مختلف لونه وطعمه، ليخرج من باطنها سائغاً له فوائد جمة، وبه شفاء كثير من الأمراض، وهو ما عرفه الإنسان – بعد ذلك- بالدراسة الدقيقة والمتابعة المتأنية والبحوث المفصلة حول حياة النحل وإنتاج العسل (انظر أيضاً: عسل النحل)، كما كشف القرآن عن تنوع مساكن النحل، والتي بينتها الحفريات القديمة: في الجبال؛ وفي جذوع

(3) كل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها (الظلال)، أودع الله سبحانه وتعالى في كل شيء صفاته

الخاصة التي تؤهله لأداء وظيفته التي خلق لها في هذه الحياة (المنتخب).

(4) وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء الذرة... الخلية الحية... الكائنات الحية... المجموعة الشمسية (الظلال)، فسوى

خلقه، وقدر... تقديرًا مناسباً للحكمة، ومؤدياً للأغراض التي خلقه من أجلها على أحسن حال (المفسر).

الأشجار الجوفاء قبل ظهور الإنسان، ثم المناحل التي صنعها الإنسان، كل ذلك جمعته الآيتان التاليتان في كلمات وجيزة مركزة:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 68، 69]<sup>(1)</sup>.

تشير هذه الآية الثانية أيضا إلى عجيبة من عجائب النحل – بهدى المولى سبحانه وتعالى – والتي بينتها الدراسات، ألا وهي المسافات الشاسعة التي تقطعها النحلة بعيدا عن الخلية بحثا عن مصادر الرحيق، دون أن تضل الطريق – ذهابا أو إيابا، واهتدائها إلى تلك المصادر المناسبة بالنظر وبالشَّم وبالدُّوق، ثم تبادل النحل المعلومات عن تلك المصادر: بالتخاطب الصوتي وبالرقص الذي تحمل كل حركة فيه دلالة معينة، تنبئ عن نوع المصدر واتجاهه وبعده عن المكان.

#### 4/6 منابع اللبن:

تأمل إعجاز الدقة في الوصف الفسيولوجي والتشريحي لمنبع اللبن في الأنعام، كالأبقار والجاموس، والتي أكدها العلم بعد قرون عديدة من التنزيل الحكيم، إذ تتوزع نواتج الهضم في الأنعام بين: الدم إلى العروق، واللبن إلى الضروع، والروث إلى المخرج، وكان ذلك أيضا قبل اكتشاف كيفية التمثيل الغذائي والدورة الدموية، بقرون عديدة:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66]<sup>(2)</sup>.

والفرث: بقايا الطعام في كرش الأنعام. وتأمل أيضا إشارة القرآن ثم إشادة المصطفى صلى الله عليه وسلم بفضل اللبن ومنتجاته، كمصدر أساسي عظيم للتغذية؛ يطلق عليه: "الغذاء الكامل":\*(من سقاه الله لبنًا فليقل: "اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه"، فإني لا أعلم ما يُجْزَى مِنْ الطعام والشراب إِلَّا اللَّبَنُ) (أبو داود وابن ماجه وأحمد).\*(إن الله عزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً فَعَلَيْكَ بِاللَّبَنِ الْبَقَرِ فَإِنَّهَا تُرْمُ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ) (أحمد).

#### 5/6 زوجية الكائنات الحية:

(1) بيوت النحل في ثلاثة: في الجبال وكواها، ومتحوف الأشجار، وما يعرش لها من الأحياء والخلايا والحيطان، وعَرْشٌ يَعْرِشُ: إذا بنى عريشا من الأغصان والخشب، ومن عجب ما أكرم الله النحل أنه يجعل بيوته مسدسة الشكل (أيسر التفاسير).

(2) الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر، وما كان لبشر في ذلك العهد ليتصورها فضلا أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة. . . ووجود حقيقة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن (الظلال)، توجد في ضروع الماشية غدد خاصة لإفراز اللبن تمدها الأنواع الشريانية بخلاصة مكونة من الدم؛ والكيلوز وهو خلاصة الغذاء المهضوم، وكلاهما غير مستساغ طعاما، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتكوين اللبن. . . (المنتخب)، فسبحان ذي القدرة العجيبة والعلم الواسع والحكمة التي لا يقادر قدرها (أيسر التفاسير).

كشفت المجهر الإلكتروني أن كل الكائنات الحية – مهما دقت- أزواج، بل إن المكونات الحيوية – على مستوى الخلية أو أدنى – أزواج، فالكروموسومات التي تحمل الصفات الوراثية بالخلية ما هي إلا أزواج من الشرائط التي تتوزع عليها الأحماض الأمينية، والنطفة "الأمشاج" خليط من بويضة وحيوان منوي، والحيوانات المنوية نوعان: أحدهما يحمل الصفات الوراثية المذكرة والآخر الصفات المؤنثة، ومسببات الأمراض من ميكروبات وفيروسات وبكتيريا لكل منها أجسام مضادة: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

وليس عالم الحيوان وحده أزواج، بل عالم النبات كله أزواج كذلك؛ بينما لم تعرف العرب وقت نزول القرآن من أزواج النبات سوى النخيل، ولم يعرف البشر إلا بعد اكتشاف المجاهر أن للنباتات كغيرها من الكائنات الحية: أعضاء تكثير (السدات) وأعضاء تأنيث (المبيض)، وأن الرياح وغيرها من العوامل تحمل حبوب اللقاح إلى الجنس المخالف ليتم التكاثر، كما جاء في الآية السابقة وفي الآية التالية: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3]<sup>(1)</sup>.

وثبت بذلك إعجاز جديد للقرآن الكريم الذي أكد زوجية كل الكائنات.

(1) حقيقة لم تعرف للبشر عن طريق علمهم وبحسبهم إلا قريبا: هي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان مظهرها أن ليس من جنسها ذكور تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير والتأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود (الظلال)، النباتات الزهرية المثمرة جميعها تنتج من تزواج عناصر الذكورة والأنوثة سواء أكانت تلك العناصر في زهرة واحدة أو في زهرتين مختلفتين (المنتخب).

## الفصل السابع في خلق الإنسان

### 1/7 الوراثة:

تتحدد صفات الخلية الحية بما تحمله من كروموسومات، والكروموسومات بناء من البروتينات والأحماض الأمينية الأربعة: أدنين، ثيامين، جوانين، سيتوزين، مرتبة في الفراغ على هيئة شريطين حلزونيين ملتفين حول بعضهما، وتحمل الكروموسومات الشفرة التي توجه نشاط الخلية وانقسامها وما إلى ذلك، تبعا لترتيب الأحماض الأمينية على امتداد الشريطين في الفراغ، ومن المعروف أن الجنين يتكون من اتحاد خلية واحدة من الذكر (الحيوان المنوي) وخلية واحدة من الأنثى (البويضة)، ومن هنا فإن الصفات الوراثية تتحدد بكل من كروموسومات الأب وكروموسومات الأم، 50% لكل منهما، ويتم ذلك ابتداء من النطفة الأولى التي تجمع بين الحيوان المنوي والبويضة: النطفة الأمشاج أي الخليط، والمشيج: كل شينين مختلطين، حيث تتشكل الجينات للمخلوق الجديد مصداقا للآية:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2]،

وفي الحديث أيضا:

\* (أن يهوديا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: يايهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد مم يُخلق الإنسان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا يهودي من كُلِّ يُخْلَق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة) (أحمد).

ومن ناحية أخرى فإن السائل المنوي في حد ذاته أمشاج من عدة مكونات: الحيوانات المنوية من الخصيتين، وإفراز الحويصلات المنوية، وسائل البروستاتا، وإفرازات غدد كوبر وغدد ليترى، وسنرى بعد ذلك آية أخرى من آيات الإعجاز في القرآن بإشارته إلى أن جنس المولود إنما يتحدد بنوع الحيوان المنوي الذي يصيب البويضة. وهناك صفات وراثية قد لا تظهر في الجيل الأول من الأبناء، ثم تظهر بعد جيلين أو ثلاث يطلق عليها الصفات الوراثية المتنحية، وقد هدى الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نَفَى ولده، لأن امرأته ولدت غلاما أسود، فقال له صلى الله عليه وسلم: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حُمْرٌ، فقال صلى الله عليه وسلم: هل فيها من أَوْرَق (أي أسود) قال: إن فيها أَوْرَقًا، قال: فأني ثَرَى ذلك جاءها؟ قال: يا رسول الله عَرَقُ نَزَعَهَا، قال: ولعلَّ هذا عَرَقُ (البخاري ومسلم).

### 2/7 جنس الجنين:

بالسائل المنوي عشرات الملايين من الحيوانات المنوية، وهذه الكائنات خلايا وحيدة متماثلة كل التماثل في كروموسوماتها الأربع والعشرين عدا واحدا: هو



الكروموسوم المحدد للجنس، وهو إما مذكر يرمز له بالرمز Y أو مؤنث يرمز له بالرمز X، أما بويضة الأنثى فهي الأخرى خلية وحيدة، كروموسوماتها ثلاث وعشرون إلى جانب الكروموسوم الأخير المحدد للجنس وهودائما مؤنث X. عند التقاء الذكر بالأنثى تتدافع ملايين الحيوانات المنوية نحو البويضة، والحيوانات المنوية المذكرة Y أكثر حيوية وسرعة من المؤنثة، فإذا سبقت كان الحمل ذكرا، وإلا اجتمعت الصفات المؤنثة مع الصفات المؤنثة للحيوان المنوي X فكان الحمل أنثى، ومن هنا أثبت علم الوراثة الحديث أن جنس المولود إنما يحدده في المقام الأول الحيوان المنوي، ويتفق ذلك مع سياق الآيات التي ربطت بين المني وبين جنس المولود، بشكل يؤكد إعجازها:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: 45، 46]<sup>(1)</sup>

﴿لَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [القيامة: 37-39].

كما رأينا: تبدأ الحياة بالتقاء بويضة وحيوان منوي. تحمل الأنثى في كل دورة شهرية بويضة جديدة صالحة للإخصاب بالسائل المنوي، الذي يضم في القذفة الواحدة عشرات الملايين من الحيوانات المنوية التي قد يصل عددها إلى 350 مليوناً، ومن كل هذه الملايين لا ينجح إلا واحد فقط في إخصاب البويضة، وهنا نجد روعة الدقة العلمية في اختيار القرآن لتعبير "نطفة من" مني يمني، فالنطفة مقدار ضئيل للغاية (النطفة لغة: القطارة والقليل من الماء، ونطف الماء: قطر) من ذلك الماء – وليس كل الماء أو معظمه الذي يقوم بالإخصاب، كما عبرت بذلك الآيات، وأكد ذلك أيضاً – بعلم من المولى عز وجل – المصطفى صلى الله عليه وسلم في حديثه:

\* (ما من كَلِّ الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلقَ شيءٍ لم يَمْنَعْه شيء) (مسلم).

ومن ناحية أخرى فإن ارتباط جنس المولود بحيوان معين ضمن ملايين الحيوانات يقطع باستحالة التنبؤ – فضلا عن التحكم – في جنس نطفة تحملها أنثى، كما ثبت أن جنس المولود الجديد لا يتحدد ولا يظهر قبل ستة إلى سبع أسابيع، مما يؤكد عجز العلم من جهة، وإعجاز قدرة الله تعالى، الذي خص نفسه بمعرفة ما تغيض الأرحام، كما جاء في أكثر من آية:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

[الرعد: 8].

﴿...وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ...﴾ [الحج: 5].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ عَذَابًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11].

(1) النطفة: القليل من الماء (اللسان)، ونطف الماء: قطر، والقربة تنطف أي تقطر (الصحاح) والنطفة من معانيها القطرة (الوسيط).

﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِمَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: 47].

### 3/7 تطور الجنين:

من أبلغ آيات الله المبهرات في كتابه الكريم ذلك الوصف التشريحي الدقيق لمراحل تكون الجنين منذ كان نطفة، تطورت إلى علقة ثم إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم نشأت فيها العظام وكسيت لحما، حتى بدايات الحركة والحياة قبل الخروج إلى العالم، وكذلك ذكر ما يحفظ الجنين في قرار مكين. أي لأُم لم تعرف شيئا من علم التشريح ولا الفحص المجهرى للكائنات المتناهية الصغر، ولم تملك زمامه لقرون طوال أن تدرك مغزى ما أنبأها به العليم الحكيم.

ولنبدأ القصة من أولها: في منتصف كل دورة شهرية يفرز مبيض الأنثى خلية واحدة هي البويضة التي اكتمل نموها، فتدفعها إلى قناة فالوب، حيث يتاح لها - في الظروف الملائمة أن يصيبها حيوان منوي (وهو الآخر خلية وحيدة) لها رأس وذنب، "يتعلق" في جدار البويضة وينشأ فيها، وهنا تندفع البويضة الملقحة (خليط البويضة والحيوان المنوي) إلى داخل الرحم، حيث "تتعلق" بجداره بواسطة خلايا "أكالة"، وتتخذ شكل دودة العلقة الممتلئة دما، مصداقا لقوله تعالى في أول ما نزل من القرآن: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 2]<sup>(1)</sup>.

والعلق لغة: كل ما علق، وعلق بالشيء علقاً وعلقه: نشب فيه، ورغم ذلك لم يدرك المفسرون القدماء حقيقة الحيوان المنوي "المتعلق" بجدار البويضة، ليتكون منه الجنين "المتعلق" هو الآخر بجدار الرحم، فصرفوا المعنى إلى أن العلقه كناية عن الدم المتخثر (ربما لما كان يشاهد في حالات الإجهاض المبكر)، ثم عبرت الآيات بوضوح عن كون العلقه مرحلة محددة من مراحل نشأة الجنين، كما جاء في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5]<sup>(2)</sup>.

(1) العلق: كل ما علق (الوسيط)، وقال اللحياني: الشوب في الشيء يكون في جبل أو أرض أو ما أشبههما. والعلق في الثوب: ما

علق به، وأصاب ثوبي علق بالفتح، وهو ما علقه فحذه (اللسان)، والعلقه: دودة في الماء تمص الدم!! (الصحيح)، العلقه الدودة

الصغيرة، وقد أثبت الطب الحديث أن المني محتوى على (حيوانات وديدان صغيرة) لا ترى بالعين وإنما بالمجهر الدقيق وأن لها رأسا وذنباً

(الصفوة)، العلق اسم جمع واحدة علقه. . . كانت. . . نطفة ثم تطورت إلى علقه تعلق بجدار الرحم (أيسر التفاسير).

(2) المضغة: القطعة الصغيرة من اللحم (الوسيط)، مخلقة: قد بدا خلقها، وغير مخلقة لم تصور (اللسان) حيوان واحد هو الذي يلقح

البويضة. . . المضغة، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمّة ولا شكلاً ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحويلها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم

(الظلال).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ\* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَاهَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 13، 14]<sup>(3)</sup>.

منذ اللحظة الأولى لتلقيح البويضة تبدأ الخلية (الخليط) في النمو عن طريق سلسلة مستمرة من الانقسامات، ويستمر نمو العلقة – التي لا تُرى بالعين في بدايتها – إلى أن تتخذ شكل قطعة من اللحم الممضوغ، والتي يعبر عنها بأبلغ تعبير لفظ "مضغة"، ثم رويدا رويدا تأخذ المضغة في التشكل وفق نظام معقد مبهر، لكل خلية فيه وظيفة محددة ودور معلوم، وهنا تتضح معالم أعضاء الجسم شيئا فشيئا، وذلك وجه لفهم الفرق بين المضغة "المخلقة" و "غير المخلقة"، وقد يفهم الفرق بوجه آخر – وذلك على مستوى الخلايا – فالخلايا نوعان: منها ما يساهم في تكوين أعضاء الجسم الداخلية والخارجية المعينة – أي أنها "تتخلق" لوظيفة محددة، ومنها ما يظل منذ البداية ثم طوال حياة الإنسان، خلايا غير متميزة تتجدد باستمرار لتلبي احتياجات الجسم عند الجروح أو الكسور فتصبح خلايا دم أو عضلات أو غيرها.

ثم يستمر نمو الجنين على ثلاثة محاور: الخلايا الخارجية تتحول إلى "الجلد والجهاز العصبي"، والخلايا الوسطى تتحول إلى "عظام"، تبدأ كمادة غضروفية تترسب حولها مادة العظم، ثم تكسى باللحم: "فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما"، أما الخلايا الداخلية فتتحول إلى عضلات وأوعية وأحشاء داخلية.

تتحدد المعالم الكاملة للجنين في نهاية الأسبوع السادس، كما يكتمل تركيب المخ بأجزائه ومعالم الجهاز الهضمي، وكذلك معالم الوجه كالعينين والأنف والأذنين، ومعالم الأطراف من يدين ورجلين وأصابعهما، وجنس الجنين ذكر أم أنثى.

هذه هي الأطوار التي يمر بها الجنين كما فصلتها الآيات السابقة، وكما أجملها قوله الحق تعالى:

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14]<sup>(4)</sup>.

#### 4/7 القرار المكين:

يستمر نمو الجنين في قراره المكين إلى الوقت المعلوم، ويسبح طوال ذلك في سائل مائي به كل السكريات والبروتينات والأملاح غير العضوية التي يحتاجها. يحفظ السائل غشاء متين هو الغشاء الأمنيوني، ويتلقى السائل الأمنيوني غذاءه

(3) هنا يقف الإنسان مذهوشا أمام ما كشف عنه القرآن... لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي...

خلايا العظم غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن الخلايا العظم هي التي تتكون أولا في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظم وتمام الهيكل العظمي... (الظلال)، وقد أثبت علم الأجنة والتشريح أن النطفة في طورها الثاني تعلق بجدار الرحم طيلة طورها الثاني فهي بمعنى عالق ولا منافاة بين كونها علقة وعالقة (أيسر التفاسير).

(1) والذي عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة... ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة... في أول أمره يشبه (الجنين) حيوان الخلية الواحدة ثم المتعدد الخلايا ثم شكل حيوان مائي... ثم ثديي... الشكل الإنساني، وهذا أبعد من إدراك قوم نوح، فقد كشف هذا حديثا جدا... وقد تكون لها مدلولات أخرى لم تكشف للعلم بعد... ولا نقيدها (الظلال)، أي حالا بعد حال فطوراً نطفة وطورا علقة وطورا مضغة (أيسر التفاسير).

من الأم عن طريق طبقة ثانية هي غشاء المشيمة (الذي كان بادئ الأمر: جدار البويضة الملحقة الذي تعلق بجدار الرحم ثم ظل ينمو بنمو الجنين)، يقوم غشاء المشيمة بشكل انتقائي بنقل الأغذية والأكسجين من جدار الرحم إلى السائل الأمنيوني، كما يلفظ فضلات الجنين كالبولينا وثاني أكسيد الكربون، أما الغشاء الثالث فهو الغشاء المبطن للجدار الداخلي للرحم (الغشاء الساقط) وقد تضخم إلى غشاء اسفنجي امتلأ بالدم الذي يخدم العمليات الحيوية للجنين. استقرار جنين في رحم أم تسعى وتنشقى وتتعرض لشتى عوارض الحياة طوال أشهر تسع، معجزة من معجزات الخلق، والإشارة إلى ذلك بعبارة ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [المؤمنون: 13]<sup>(2)</sup> دليل على صدق القائل العليم. لقد حار القدماء في مغزى ذلك "القرار"

حتى تبين لنا بالعلم أنه قرار بلغ من عظمة التصميم وحكمة الخلق ذروته، فمن ذلك وضع الرحم في عظام "الحوض الحقيقي"، وربطه بواسطة عضلات بجدار الحوض (مع استمرار النمو الكبير للجنين)، ومؤازرته بعضلات الحوض والعجان (نسيج ضام يربط عنق الرحم بالمثانة من ناحية، وبالمستقيم من ناحية أخرى)، وغير ذلك مما يحمي الجنين، كالأغشية الثلاث التي أشرنا إليها من قبل، والسائل الأمنيوني الذي يسبح فيه الجنين فلا يتأثر بحركة الأم، والذي يمنع الأغشية من الالتصاق بالجنين عند الولادة، كما يوسع – لكونه جييا للمياه – عنق الرحم ليخرج الوليد إلى النور بسلام.

#### 5/7 الظلمات الثلاث:

صدق المولى عز وجل من قائل:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6]<sup>(4)</sup>.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في تحديد تلك الظلمات الثلاث وأقربها إلى الصواب – الذي يتفق مع مراحل "خلق" الإنسان ومع معنى "الظلمة" – أنه:

1. المبيض الذي يختزن بويضات الأنثى إلى حين انطلاقها.
  2. قناة فالوب التي يتم فيها التلقيح – بمشيئة الله – وبداية الحمل، ثم:
  3. الرحم الذي ينمو فيه الجنين حتى يرى النور.
- ومن العلماء من رأى أن الظلمات الثلاث هي الغشاء الأمنيوني، ثم المشيمة، ثم الغشاء الساقط، ولكن هذه لا ينطبق عليها لفظ "ظلمة".
- ومن السلف وبعض المفسرين من رأى المقصود بالظلمات الثلاث: جدار البطن والرحم والمشيمة، إلا أن ما ذكرناه أولاً من مواضع هي المتعلقة فعلاً بالجنين وتطوره خلقاً بعد خلق، ثم ينتهي دورها بخروج المولود إلى النور.

#### 6/7 الروح:

(2) "في قرار مكين": ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض، الحمية بها من التأثير باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكحات وكدمات، ورجات وتأثرات. . . (الظلال).

الروح كيان يميز الحي عن الميت ولا يجادل في وجودها أحد ولكن ما هو ذلك الروح، الذي يجعل القلب ينبض تلقائياً، وهو بعد مضغعة وجنين في ظلمات الرحم، ويجعل المخ يعمل ويتلقى الرسائل ثم يلقي الأوامر إلى كل خلية من خلايا الجسم في نظام رائع متشابك، وهو أيضاً الروح الذي بخروجه - لسبب أو لغير سبب مفهوم - تنتهي الحياة، لقد تحدى الله البشر أن يدركوا من أمرها شيئاً: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وقد مرت قرون ظن فيها بعض بني البشر أنهم قد أوتوا من كل شيء علماء، ولكن أحداً منهم لم تأت به بارقة من معرفة بكنه الروح التي اختص الله تعالى نفسه بعلمها، تحد قائم مازال معجزاً حتى هذا الزمان وفي كل زمان.

#### 7/7 الجلد:

الجلد مركز الإحساس بالألم لوخز أو حرق أو ما إلى ذلك، ذلك أمر معروف، تفسيره العلمي أن أعصاب الجلد تنقل إشارات إلى مراكز الإحساس بالمخ، أما ما لم يعرفه البشر إلا حديثاً فهو أن الإنسان يفقد إحساسه بالألم عندما تتلف أعصاب الجلد هذه بمؤثرات كالحرق أو الجذام، وقد أُنذر القرآن الكريم الكافرين والمنافقين؛ والعاصين المصيرين، بالخلود في نار جهنم، وهناك - كى يتجدد إحساسهم بالألم ولا يفتر عنهم العذاب - تبدل جلودهم أولاً بأول، كما جاء في قول الخالق العليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56]<sup>(2)</sup>.

#### 8/7 البصمات:

إن الخطوط المميزة لبصمات الأصابع، والتي لا تتكرر بين إنسان وإنسان، في أي زمان أو مكان، حقيقة علمية لم يكتشفها الطب الشرعي إلا في القرن التاسع عشر، ليعتمد عليها علم الجريمة بعد ذلك في كشف الجرائم، ومن هنا كان إعجاز القرآن - في معرض الرد على منكري البعث - بالتنويه بقدرة الله تعالى في تسوية؛ ثم إعادة تسوية، أطراف الأصابع (البنان) بأدق تفاصيلها المتميزة لكل إنسان، ذلك البنان الذي يبدو - لمن لا يعلم - ضئيل الشأن، لا يستحق في القرآن ذكراً، بينما هو دليل على دقة الله في خلقه، والتي لا يدرك قدرها إلا العالمون، واختصاص البنان بالذكر في الآية آية على علم منزل القرآن العظيم: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ\* بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 3، 4]<sup>(1)</sup>.

(2) تدل على شدة العذاب... دليل ما تقرره الحقيقة العلمية من أن الأعصاب المنتشرة في طبقات الجلد هي أكثر الأعصاب حساسية لمختلف المؤثرات من حرارة وبرودة (المتحجب).

## 9/7 المناعة:

أظهر الطب الحديث الدور المعقد والرائع لكل من المناعة الطبيعية والمكتسبة، وتتمثل المناعة الطبيعية في الإفرازات السطحية المقاومة للبكتيريا في الجلد وفي الأغشية المخاطية، وفي مواد مضادة للبكتيريا في الأنسجة وسوائل الجسم؛ وفي خلايا الدم الملتزمة (من كرات الدم البيضاء وبعض أنواع البكتيريا داخل الجسم) التي تقاوم البكتيريا المعادية، أما المناعة المكتسبة فتتمثل في الأجسام المضادة والخلايا المضادة، وقال في ذلك عز من قائل:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4].

ولقد فهم العلامة ابن كثير في تفسيره الشهير الذي أخرجه في القرن الثامن الهجري من هذه الآية أن "كل نفس عليها من الله حافظ يحفظها من الآفات"، دون أن يعرف هذه التفاصيل الحديثة التي فصلتها تجريبيا دراسة الميكروبيولوجيا. آية أخرى للإعجاز القرآني.

## 10/7 السمع:

تكرر في القرآن تقديم "السمع" على "البصر" (15 آية) ولذلك مغزى طبي عميق إذ يتسق مع ترتيب اكتساب الحواس لدى الإنسان بعد ولادته في مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

كما يتسق تقديم السمع على البصر مع الحقائق الآتية:

- استمرار حاسة السمع؛ دون البصر، ليلا ونهارا حتى أثناء النوم.
- الأهمية النسبية للسمع للبصر في التلقي والفهم والحفظ والتفاعل الاجتماعي.

كما عبر الحديث الصحيح عن بداية تكوين أعضاء السمع بلفظ غاية في الدقة وهو شق السمع، في قوله صلى الله عليه وسلم:

\* (سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ) (مسلم).

ومن المعروف أن قناة السمع الخارجية تتشكل في الجنين ثم تغلق، وتظل كذلك حتى الشهر السابع حيث تنشق لتبدأ حاسة السمع في العمل، وكذلك تنشق عدسة العين المغطاة حينئذ بالمحفظة العدسية الوعائية التي تتخللها أوعية دموية تضمر في الشهر السابع فتتنشق في وسطها فتحة: هي حدقة العين، ثم تنشق الجفون الملتصقة.

## 11/7 شدة الصوت:

(1) ذكر البنان لما فيها من غزابة الوضع ودقة الصنع، لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة... لا تماثلها خطوط أخرى... معجزة علمية (الصفوة)، أثبت العلم الحديث أنه لا تشابه بصمما بنائين (المنتخب)، كما نحن قادرون على تسوية تلك الخطوط الدقيقة في الأصابع والتي تختلف بين إنسان وإنسان اختلاف الوجوه والأصوات واللهجات (أيسر التفاسير).

حواس الإنسان قد خلقها الله وحدد مداها الذي لا تحيد عنه، فنحن نرى الأشياء التي ينعكس منها ضوء طوله الموجي منحصر بين الأشعة الحمراء في الجانب الأطول والأشعة البنفسجية في الجانب الأقصر فحسب، ولكننا لا نرى الموجات الأطول (كالأشعة تحت الحمراء)، ولا الأقصر (كالأشعة فوق البنفسجية والسينية والكونية)، وكذلك السمع له حدوده فلا تدرك الأذن من الأصوات إلا ما كانت ذبذباته في المدى المسمى بالموجات الصوتية، بينما لا نشعر بموجات اللاسلكي ولا الموجات فوق الصوتية، وحساسية الأذن أيضا حساسية محدودة لشدة الصوت، فلا تميز الأصوات لو قلت شدتها عن 10-12<sup>12</sup> وات/م<sup>2</sup> (بداية مقياس الديسيبل)؛ ولا تتحمل الأصوات التي تزيد شدتها عن 200 ديسيبل، ولو زادت لصعق الإنسان ومات على الفور، وذلك بيان صادق لقوله تعالى فيما يصف به قيام الساعة:

﴿وَتُفْجَعُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

فالأولى صعق بشدة الصوت لمن كان حيا يومئذ، والثانية بعث وإعادة للخلق، كما خلق الإنسان أول مرة من عدم، بأمر الله تعالى وقدرته.

كما جاء في هول صيحة القيامة آيات كثيرة منها:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: 29].

﴿وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: 15].

وجاء أيضا ذكر الصعق بشدة الصيحة في قصة نمرود، قوم صالح عليه السلام، في عدة آيات منها: (هود/67، هود/94، الحجر/73، الحجر/83، المؤمنون/41، القمر/31).

## الفصل الثامن الطب البشري

### 1/8 الطعام:

علمنا الهدى القرآني والمدرسة النبوية – قبل أن يكون ثم مدارس وطب حديث – مضار الإسراف في الطعام، وفضل الاعتدال في المأكل والمشرب، وتنظيم أوقات الوجبات، وذلك كله أساس الصحة والنشاط؛ وعماد كل علاج، بل إن القدر الرئيسي مم يستهلكه عالم اليوم من دواء إنما يتعلق بأمراض مصدرها الجهاز الهضمي أو شاركت في استفحالها أسباب غذائية، بينما علمنا الإسلام منذ قرون، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]<sup>(1)</sup>.

وقال صلى الله عليه وسلم:

- \* (المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء) (البخاري ومسلم).
- \* (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلاث ليطعمه وثلاث ليشربه وثلاث لنفسه) (الترمذي).
- \* (إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة) (ابن ماجه).
- \* (أصل كل داء البردة (أي التخممة) (السيوطي في الجامع الصغير).
- كما علمنا الرسول الكريم أيضاً الأسلوب الصحي لتناول الطعام، كيف نجلس:
- \* (لا أكل متكئاً) (البخاري).
- \* (مارئي رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل متكئاً قط) (أبو داود وأحمد).
- وكيف نتأني في ابتلاع الطعام، وذلك لإعطاء هواء المعدة فرصة الخروج؛ فيجنب المرء ما قد يصيبه من انتفاخ في المعدة والقولون؛ أو صعوبة في الهضم وفي التنفس:
- \* (لا تشربوا واحداً كثيراً البعير ولكن اشربوا مئتي وثلاث، وسموا إذا أنتم شربتم، واحمدوا الله إذا أنتم رقعتم) (الترمذي).

### 2/8 الصيام:

الصوم أفضل العبادات ثواباً لدى المولى عز وجل، وهو مدرسة الصبر والجَلَد، وقد بين الطب الحديث ما للصوم من فوائد طبية: سواء كعادة غذائية سنوية كل رمضان، أو كنافلة لمن يستزيد من فضل الله ورضاه.

(1) هذه الآية الكريمة أصل من أصول الدواء، إذ أمرت بالأكل والشرب وهما قوام الحياة وحرمت الإسراف فيهما وهو سبب كافة الأمراض (أيسر التفاسير).



تمتد فوائد الصوم من: تقليل مضار السمّة وسكر الدم؛ والزلال عند السيدات، إلى تخفيف حدة أمراض القلب وتصلب الشرايين؛ وما يصحبها من تضخم حجرات القلب وتورم الساقين والقدمين، إلى راحة المعدة والقولون وتحسين الهضم وزيادة فاعلية العقاقير والمساعدة على تفتيت الحصوات، إلى تجديد الخلايا بشكل عام والقضاء على البؤر الصديدية، إلى جانب ما يصحب الصيام من تنشيط الذهن وتخفيف التوتر النفسي وضغط الدم، فلم يكن عجباً في يومنا هذا أن تنشأ مصحات في بلاد مختلفة تعالج الناس بالصوم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ \* أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ \* شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [البقرة: 183-185].

تؤكد هذه الآيات ما في الصيام من فوائد لا يعلمها إلا الله ومن يعلمون (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون).

المتأمل في توقيت صوم رمضان يرى الحكمة في اختيار الشهور القمرية، حيث يدور وقت الصيام تدريجياً من عام إلى عام عبر فصول السنة، فلا يستأثر بلد بصوم الصيف دوماً ولا صوم الشتاء دوماً.

### 3/8 اللحوم:

الأصل في الأشياء الإباحة، وما حرم الله شيئاً إلا لحكمة؛ تخفى علينا حيناً حتى نهتدي إليها، ربما بعد قرون، ويتجلى ذلك واضحاً في تحريم لحوم الميتة والدم ولحم الخنزير. أضرار الميتة تتلخص في أن عدم إسالة دمها يساعد على نمو البكتيريا في الدم المحتبس، كما يحمل دمها مركبات نشادرية قد تؤثر على مخ أكلها، كما قد تحمل الميتة أمراضاً أو قد تكون مانت مسمومة؛ أما الدم فسرّيع امتصاص الميكروبات، فإذا ما تعرض للهواء تتجمع فيه البكتيريا؛ وبالدم مواد مهيجة ترفع ضغط الدم. أما لحم الخنزير فيحمل العديد من الطفيليات الخطيرة، وأخطرها دودة تينيا سويلم التي يعد الخنزير العائل الوحيد لها، والتي تكمل دورة حياتها داخل جسم الإنسان، وقد تستقر في مخه فتصيبه بالجنون أو العمى، وقد تعرضه لاحتمال الانسداد المعوي من جراء كتل الديدان وما تفعله الديدان بجدران القناة الهضمية؛ ودودة أخرى خطيرة هي دودة التريخينيا التي تخترق جدران المعدة، ومنها إلى العضلات والأعضاء المختلفة، كما أن الخنزير أكثر الحيوانات احتفاظاً بحمض البولييك؛ وذلك الحمض – هو ودهن الخنزير – عسر الهضم وله أبلغ الضرر على الدورة الدموية والمفاصل، ألا يعلم من خلق، بلى وهو اللطيف الخبير، القائل:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3]<sup>(1)</sup>.

الموقوذة: المضروبة بعصا أو حجر، المتردية: التي تسقط من جبل ونحوه، النطيحة: ما نطحها أخرى فماتت؛ ما أكل السبع: أي أكل بعضه (جزءاً منه) فمات.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 115].

ولما كان الإسلام هدى الله العليم فلم يذهب إلى ما ذهبت إليه بعض الشرائع من إفراط في تحريم ما أحل الله، فحرموا لحوم الحيوان بإطلاقها: إما دائماً وإما في إطار تحويل عبادة الصيام كما شرعها الله (كما كتب على الذين من قبلكم) إلى صيام عن الطعام الحيواني فحسب. أكد القرآن تحليل الذبائح بأنواعها عدا ما أشرنا إليه من محرمات، وقد أثبت الطب الحديث الأهمية القصوى لتناول البروتينات الحيوانية، إذ أن هذا النوع من البروتينات هو المصدر الوحيد لتكوين الأجسام المضادة التي تدافع عن الجسم وتحميه من الجراثيم والميكروبات.

من شروط الذبح الإسلامي التذكية: أي إسالة دم الذبيحة لتصفية الدم الفاسد، ويتم ذلك إما بقطع الحلقوم والمريء والودجين (أي الذبح) وذلك للبقر والغنم والطيور، أو بالطعن في اللبة (المنحر) إلى مبدأ الصدر (أي النحر) وذلك للإبل وأحياناً للبقر، أو جرح الحيوان غير المقدور عليه في الصيد (العقر) كما جاء في الأحاديث الشريفة:

\* (الدُّكَاةُ فِي الْحَلْقِ وَاللَّبَّةُ) (البخاري: مرسل عن ابن عباس، والدارقطني).

\* (مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فُكِّلُوا لَيْسَ السِّنُّ وَالطُّفْرُ) (الجماعة).

وليسأل القارئ نفسه من الذي هدى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى هذا الأسلوب الذي أثبت الطب الحديث مؤخراً حكمته، كما جاء في تقرير منظمة الصحة العالمية عام 1988 من الميلاد.

#### 4/8 العسل:

أشاد الله ورسوله في القرآن والحديث بفوائد عسل النحل، فالإ جانب سهولة تمثيله وامتصاص سكرياته، ثبت تجريبياً قضاؤه على الكثير من الجراثيم بفضل ما به من مضادات حيوية تفرزها النحلة الشغالة، كما يستخدم في مجالات تعقيم الجروح من

(1) سبق القرآن الطب الحديث بتحريم... (المنتخب)، المنتخبة: من خنقه عصر حلقه حتى مات. الموقوذة التي وقذت (ضربت)

بالعصا حتى ماتت (الوسيط). المتردية التي تقع من جبل أو تطيح في بئر، أو تسقط من موضع مشرف فتموت (اللسان). النطيحة، ما

تناطح فمات (اللسان). ذكيتهم: من ذكى الشاة ذبحها (الوسيط)، والتذكية: الذبح على التمام (اللسان).

التقيح = والتي يساعد العسل أيضا على سرعة التئامها، وفي شفاء التهابات الأنف والحنجرة، وقد اكتشف مؤخرا أنه المادة الوحيدة في الطبيعة التي يتوافر بها عقار الأنترفرون المضاد للنمو السرطاني، كما لوحظ أنه يساعد - بإذن الله - على مقاومة أعراض الشيخوخة، وأكثر من يطلق عليهم المعمرون يواظبون على تناوله، كما تتضح فوائده يوما بعد يوم لمرضى القلب والكبد وقرحة المعدة والحمى الروماتيزمية والتيفود، وفي مقاومة التسمم الخارجي والداخلي، كما أن له تأثيرا مساعدا لتخفيف أعراض الاكتئاب والأمراض النفسية وضيق التنفس؛ وكذلك لجلب النوم الهادئ، كما يستخدم في علاج بعض الأمراض الجلدية كالأرتكاريما والأكزيما، حتى ظهرت مراجع متخصصة تتناول فوائد وأوجه العلاج بعسل النحل كتبها مؤلفون غير مسلمين (تضاف إلى العديد من كتابات العلماء المسلمين) مثل:

- "عسل النحل"، تأليف إيفاكين، طبع هاينمان، 1975.

- "العلاج بعسل النحل"، تأليف دين. يويريش، ترجمة محمد الحلوجي.

وصدق تعالى في قوله:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ\* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 68، 69]<sup>(1)</sup>.

وصدق الرسول الكريم في حديثه:

\* (عن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخي يَشْتَكِي بَطْنَهُ، فقال: اسْقِهِ عَسَلًا، ثم أتى الثانية فقال: اسْقِهِ عَسَلًا، ثم أتاه الثالثة فقال: اسْقِهِ عَسَلًا، ثم أتاه فقال: قَدْ فَعَلْتُ، فقال: صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلًا، فَسَقَاهُ قَبْرًا) (البخاري ومسلم).

\* (إن كان في شيء من أدويكم خيرٌ فقي شَرْطَةِ مَحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ لَذْعَةٍ بَنَارٍ تُوافِقُ الدَّاءَ وما أحبُّ أن أكتوي) (البخاري ومسلم).

## 5/8 الرضاع:

حض القرآن الكريم على الرضاعة الطبيعية للأطفال، ثم أثبت العلم الحديث أهمية لبن الأم لحسن تغذية المولود ولوقايته من العدوى ومن أمراض الحساسية والفم، ولوقاية الأم من مشاكل الثدي والعمل على استقرار الرحم بعد الولادة والمساعدة في تنظيم الحمل، ولتوفير الإحساس بالدفء والأمومة للرضيع، وجاء ذلك في القرآن بثلاث صور مختلفة في آيات ثلاث:

(1) العسل مفيد في كثير من الأمراض ويعطي بطريق الحقن والغم والشرح بصفته مقويا. . . . . وضد التسمم من مختلف المعادن، وضد

التسمم الناشئ من أمراض الأعضاء، مثل التسمم البولي والصفراء وغيرها، وبه نسبة عالية من الفيتامينات وخاصة ب المركب

(المنتخب)، في قوله شفاء دال على بعض دون بعض جائز هذا حتى يضم إليه بعض الأدوية أو العقاقير الأخرى، أما مع التبية أي أن

يشرب بنية الشفاء من المؤمن فإنه شفاء من كل داء وبدون ضميمة أي شيء آخر له (أيسر التفاسير).

1- ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا يُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلًا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا عَاشَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 233]<sup>(1)</sup>.

2- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: 14]<sup>(2)</sup>.

3- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: 15]<sup>(3)</sup>.

وبيان ذلك علمياً: أن لبن الأم به نسبة عالية من البروتينات والسكريات الحرارية؛ ومن الأملاح والأجسام المضادة للأمراض، وهو دائماً معقم يخرج في درجة حرارة تناسب الرضيع صيفاً وشتاءً، يتغير لبن الأم في تركيبه منذ لحظة الولادة؛ فلبن الأيام الثلاثة الأولى (المسمى باللبأ أو الكلوستروم) به نسبة عالية من البروتينات والمضادات الحيوية التي تحمي المولود في هذه المرحلة المبكرة، ثم يتطور تركيبه مع احتياجات الرضيع ومع قدرته على تمثيل الغذاء - طوال فترة الرضاعة.

نقرز الموضع هرمون البرولاكتين الذي يعمل على عودة الرحم إلى طبيعته، كما أن الإفراز المستمر للبن بالإرضاع يحمي الأم من الخراج المزمع التي يسببها تجمع اللبن بالثدي - والتي تزيد احتمال تكون الأورام الحميدة والخيبيطة.

وقد فطن العلم الحديث مؤخراً إلى هذه الحقائق، فقامت حملات وبرامج عالمية منظمة لنشر الوعي، والتأكيد على مواصلة الرضاعة الطبيعية طوال العامين الأولين من حياة الطفل - كما حددها القرآن - حفاظاً على صحة الأم والطفل، إلى جانب دورها كوسيلة ثانوية لتنظيم الحمل: إما إرادياً لضمان استمرار لبن الأم - حتى لا ينقطع بالحمل، أو لا إرادياً حيث يعمل الإرضاع في كثير من الأحوال على تأخير عودة الدورة الطبيعية للأم.

لو تأملنا في آيات الرضاع الثلاث لتبين لنا مدى الدقة المعجزة في التعبير عن ثلاث أحوال للحمل والولادة بتعبيرات تتطابق مع كل حالة:

(1) وثبتت البحوث الصحية والنفسية اليوم ذلك، ولكن نعمة الله على الجماعة المسلمة لم تنتظرهم حتى يعلموا هذا من تجاربهم (الظلال).

(2) أي فطام الولد من الرضاع في عامين، فأول الرضاع ساعة الولادة وآخره تمام الحولين، ويجوز فصيله عن الرضاع خلال العامين (أيسر التفاسير).

(3) وقد استدلل العلماء بهذه الآية مع التي في لقمان (لقمان/14): "وفصاله في عامين" على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح (الصفوة)، أقل مدة الحمل 6 شهور لهذه الآية والأيتين الآخرين، فيسقط مدة الفصال عن مدة الحمل والفصال يبقى للحمل ستة أشهر، وهذا يتفق مع ما ثبت علمياً من أن الطفل إذا ولد لستة أشهر فإنه قابل للحياة (المنتخب).

- الحالة الأولى حيث الحمل والولادة؛ والأم والمولود؛ في أحسن حال، يكون الرضاع لحولين كاملين،
- الحالة الثانية حيث تكون الأم ضعيفة البنية والصحة؛ ولكن الحمل والولادة قد سارا بسلام، تكون مدة الرضاعة عامين دون اشتراط كمالهما - تبعا لقدرة الأم،
- أما الحالة الثالثة؛ والتي وردت فيها كلمة "كرها" مرتين - تعبيراً عن مدى التعب والمعاناة في الحمل والوضع؛ وعادة ما تكون فيها مدة الحمل أقصر، فقد تنقص إلى ستة شهور فيحتاج الطفل إلى فترة الرضاعة القصوى لتعويض ضعفه - إذا أمكن - ليصل مجموع فترة الحمل والرضاع إلى ثلاثين شهراً، وقد يطول الحمل - بمشقة شديدة في هذه الحالة - إلى تسعة شهور، وهنا ينبغي تقليل مدة الرضاعة تيسيراً على الأم إلى أقل من 21 شهراً.
- ومن ناحية أخرى قد يستنبط من قراءة الآيات مجتمعة أن الحد الأدنى للحمل ستة شهور - وهو ما ثبت علمياً.

#### 6/8 الخمر:

أضحت مشكلة الخمر أو "الكحولية" أخطر عامل يهدد صحة العالم، وأصبح في تأثيره المدمر - طبقاً لإحصائيات أجريت عام 1987م - أخطر من المخدرات ومن السرطان ومن الإيدز، ذلك الشراب الذي حرّمه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، وحرّمته الشرائع السماوية قبل ذلك (وقبل أن يُحرّف فيها ما حُرّف)؛ قبل أن يعرف البشر ما نعرفه الآن من حكمة تحريم الخمر من الناحية الطبية - إلى جانب الحكمة التربوية والاجتماعية والتشريعية، فثمة "موسوعة" من الأمراض مصدرها ذلك الرّجس اللعين: من أمراض للجهاز الهضمي كالقرحة وتسمم الخمائر المعوية والإخلال بتمثيل الفيتامينات والتهابات الكبد وتليفه وتسمم الكلى بالبولينا، إلى أمراض الجهاز العصبي المركزي وإضعاف الذاكرة وتشويش العقل، إلى أمراض الأنف والأذن والحنجرة كالصمم العصبي الناتج عن التسمم الكحولي والتهاب الحلق والحنجرة والبلعوم والتهاب الأحبال الصوتية المؤدي إلى سرطان الحنجرة، إلى التأثير على العصب البصري، وإضعاف الجهاز المناعي، والتأثير على عضلة القلب والمساعدة على تصلب الشرايين، واحتقان الجهاز التناسلي وضمور الخصيتين، وأخيراً مرض الإدمان الكحولي، سبحانه ربّي وسعت كل شيء علماً وأنت القائل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 90، 91].

ثم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم منهج المسلم في قطع الطرق وسد الذرائع الموصلة إلى الإدمان في أحاديثه:

\* (كُلُّ شَرَابٍ أَسْكِرَ فَهُوَ حَرَامٌ) (البخاري ومسلم).

\* (كُلُّ مُخَمَّرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ) (أبو داود).

\* (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ) (مسلم).

\* (كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ) (البخاري ومسلم).

\* (مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا) (الترمذي وابن ماجه).

\* (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةَ: عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَمَقْدَمَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَسَاقِيَهَا وَبَايِعَهَا وَآكَلَ ثَمَرَهَا وَالْمُسْتَتِرِي لَهَا وَالْمُسْتَتَرَاءَ لَهَا) (الترمذي).

\* (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيهَا حَرَمَ عَلَيْكُمْ) (البخاري).

## 7/8 الحيض:

قال تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعِزُّوهُنَّ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَافِلَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].

الأمر بتجنب الجماع أثناء الحيض إعجاز طبي، كشفت حكمته المعارف الطبية الحديثة، لمضاره على الجنسين؛ التي ترجع إلى ضعف حمضية المهبل (اللازمة لقتل الميكروبات)، واحتمال وصول مادة البروستاجلاندين الموجودة بالمنى إلى دم المرأة – وهذه المادة تؤدي إلى نقص المناعة، كما أن الجماع في ذلك الوقت يؤدي إلى تسلخات تساعد على نمو البكتيريا، وانقباضات الرحم خلاله تدفع هذه البكتيريا إلى تجويف الرحم، وفي الحديث:

\* (عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يَأْكُلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي النَّبُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَيَسْأَلُونَكَ ... ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ (مسلم).

ولنفس الحكمة أيضا هدى الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى النهي عن إتيان الدبر في الحديث:

\* (لَا يَسْتَحِي اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ) (أحمد).

## 8/8 العدة:

في تشريع الطلاق وقَّتَ الله سبحانه وتعالى مدة العدة بثلاث حيضات، قبل أن ترتبط المرأة بزواج جديد، وحكمة ذلك أنه قد ثبت أن دم الحيض قد يأتي بعد وقوع الحمل (الاستحاضة) ويتكرر؛ قبل أن يملأ الجنين الرحم – أي في الشهور الثلاث الأولى؛ وفي مثل هذه الحالات قد تستحيض الحامل مرة واحدة "أحيانا"؛ أو مرتين "نادرا"، بينما "يستحيل" علميا أن تستحيض الثالثة، «ألا يعلم من خلق، بلى وهو اللطيف الخبير»، وهذه آيات التشريع:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلتهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228]<sup>(1)</sup>.

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

## 9/8 الزنا:

حرم الله الزنا وسد الذرائع المؤدية إليه؛ بالدعوة إلى الاحتشام ومنع الفتنة التي يسببها التزين المفرط أو التعطر المثير، وذلك لحكمة لم يدركها العلم حتى ظهور المجهر واكتشاف ميكروبات الأمراض التناسلية؛ التي لا تنتقل وتنتشر إلا بالعلاقات الجنسية المحرمة أو الشاذة؛ كأمراض الزهري والسيلان؛ بمضاعفاتها الخطيرة التي تؤدي بأجهزة الجسم وتفتك بالحياة، ثم مرض الإيدز: مرض نقص المناعة الذاتية وطاعون العصر - عصر الجاهلية الجديدة:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32].  
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 2].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: 68].

ولأن الإسلام رسالة الخالق العليم الذي يعلم طبيعة خلقه؛ فلم يكتف بالموعظة وبالنهي عن الزنا وسن الحدود والعقوبات، بل سد كل السبل المؤدية إليه في المجتمع، وذلك ما يفهم أيضا من عبارة "لا تقربوا" أي ابتعدوا عنه وعن كل مقدماته، فأوجب الاحتشام في الزي:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

(1) وذلك أن الاستبراء لا يكون مؤكدا إلا بعد ثلاث حيضات، والحامل لا تحيض عادة، وإن حاضت فإن ذلك يكون مرة أو مرتين على الأكثر، إذ أن الجنين يكون قد نما بعد هذه المدة إلى درجة يملا معها تجويف الرحم فيمنع نزول دم الحيض. . . وما كان معلوما عند العرب، وما كان للنبي الأمي أن يعلمه (المنتخب).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59].

وأكد ذلك أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها:  
 \* (يأاسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه) (أبو داود).  
 \* (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مايلات، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) (مسلم).  
 \* (لا تقبل صلاة لامرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة) (أبو داود).

\* (أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة) (مسلم).  
 وأمر تعالى بغض البصر:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ....﴾ [النور: 30، 31].

ولم يكتف ببيان النواهي والمحظورات، بل حض على الزواج الحلال ويسر سبله:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 32]<sup>(1)</sup>.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].  
 ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72].  
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَعَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النساء: 25].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشجيع على الزواج:  
 \* (ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والتاكي الذي يريد العفاف) (الترمذي والنسائي).  
 \* (تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم) (أبو داود والنسائي).

(1) أمر جماعة المسلمين أن يزوجوا الأيامي (من لا زوج له) من رحاطهم ونسائهم بالمساعدة على ذلك والإعانة عليه، حتى لا يبقى في البلد أو القرية عزب إلا نادراً، ولا فرق بين البكر والثيب في ذلك (أيسر التفاسير).



\* (يا مَعْشَرَ الشَّابِّابِ مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) (الجماعة).  
 \* (الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) (مسلم).  
 \* (. . . أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي) (البخاري).  
 \* (ما اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ - بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ - خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ) (ابن ماجة).  
 وأباح الطلاق - عند تعذر استمرار العشرة، وكذلك تعدد الزوجات - للضرورة القصوى؛ وبشرط العدل التام؛ بدلا من الزنا المستتر الذي يتفشى في الأمم التي تقيد الطلاق ولا تسمح بالتعدد.

#### 10/8 اللواط:

ها قد لاح لحضارة أواخر القرن العشرين شبح الطاعون الأبيض: الإيدز؛ والذي ينتشر كالهشيم حيثما انتشر اللواط؛ ومثله البغاء؛ والمعاشرة الجنسية الشاذة، وقد حرم تشريع الخالق العليم كل هذه الانحرافات، وسلط القصص القرآني الأضواء مرارا على قوم لوط، وجعلهم عبرة للعالمين على امتداد الزمان:  
 ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 80، 81].  
 ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ. أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: 54، 55].  
 ﴿اتَّاتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 165، 166].  
 ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 28].

كما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أمته عن اللواط في أحاديثه:  
 \* (إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ). (البيهقي).  
 \* (مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ) (الترمذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد).

#### 11/8 البرص:

أثبت طب الأمراض الجلدية استحالة علاج مرض البرص أو البهاق؛ لارتباطه بموت خلايا الميلانين الملونة؛ والتي يستحيل بعثها من جديد، وكل ما قد يفعله الطب هو تنشيط ما قد يتبقى من خلايا؛ لتخفيف الأمر لا لشفائه، ومن هنا فإن شفاء البرص - علميا - معجزة، وذكره في القرآن في معرض المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى عليه السلام يتفق مع ما بينه العلم الحديث:  
 ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي

الْمَوْتَى بِأَدْنَى اللَّهِ وَأَنْبَتَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ [آل عمران: 49].  
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَدْنَى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَدْنَى وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَدْنَى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَدْنَى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 110].

## الفصل التاسع الصحة العامة في القرآن والسنة

### 1/9 العدوى:

انتقال العدوى - سواء بالفيروسات أو البكتيريا أو الطفيليات - ليس سببا في ذاته للإصابة بالمرض، بل قد ثبت أن تأثيره إنما يكون بأمر الله، إن شاء نشطت الجراثيم واستفحلت، وإن شاء سكنت أو استكانت لجهاز المناعة، وقد أظهرت الدراسة الإحصائية أن من بين آلاف يحملون مرضا معيناً - وباء كان أم غيره - لا يمرض منهم سوى نسبة قليلة من الناس؛ ينشط فيهم الداء دون غيرهم من بني جنسهم، بل إن المرء قد يحمل المرض سنين طوال دونما أعراض، حتى ينشط المرض فجأة دون سبب طبي مفهوم، وهنا يظهر الإعجاز العلمي فيما هدى الله إليه نبيه ليؤكد لنا أن العدوى ليست وحدها سببا حتميا للمرض:

\* (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صقر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد) (البخاري ومسلم).

\* (لا عدوى ولا صقر ولا هامة، فقال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ قال: فمن أعدى الأول؟) (البخاري ومسلم).

إلا أنه صلى الله عليه وسلم أمرنا بالاحتياط والتحرز عن مخالطة المرضى في حديثه:

\* (لا يورد ممرض على مصح). (مسلم والبخاري).

كما أمر بعزل المرضى ذوي الأمراض المستعصية، لسد الأبواب أمام انتقالها إلى من لا يملك المناعة الكافية (انظر: الحجر الصحي).

ولتقليل احتمالات انتشار الأمراض لم يغفل الهدى النبوي أن يأمرنا بنظافة الأيدي قبل وبعد تناول الطعام:

\* (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يأكل وهو جنب غسل يديه) (ابن ماجه).

\* (أن النبي صلى الله عليه وسلم) أكل كتف شاة فمضمض وغسل يديه) (ابن ماجه).

\* (من بات وفي يده ريح غمر<sup>1</sup> فأصابه شيء فلا يلوم إلا نفسه) (الترمذي).

\* (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا، فإنه لا يدرى أين باتت يده) (مسلم).

وأمر بتغطية أواني الطعام لحمايتها من الحشرات والهوام:

\* (غطوا الإناء وأوگوا السقاء) (مسلم).

\* (اتقوا الذر - الغبار - فإن فيه النسمة). والمقصود بالنسمة أصغر الكائنات أي ما نسميه الميكروبات<sup>2</sup>.

\* (أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نوكي<sup>3</sup> أسقبتنا ونُعطيَ آيتنا) (ابن ماجة).  
 \* (عن عائشة: كنت أصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة آنية من اللؤلؤ مُحَمَّرَةً<sup>4</sup>: إناءً ليطهوره، وإناءً لیسواكه، وإناءً ليشربه). (ابن ماجة).  
 كما نهى صلى الله عليه وسلم عن الشرب في القدح المشروخة - لما قد تختزنه من قاذورات في شقوقها.

## 2/9 الدواء:

علمنا الرسول الأمي الذي نشأ في أمة من أفقر أمم الأرض علماً ومالاً أن لكل مرض دواء، وأن علينا البحث والتجريب لنهتدي إلى الدواء الناجح، ثم أن علينا التداوي وعلى الله الشفاء بإذنه، ومضت قرون ساد فيها التداوي بالسحر، وغيره من ضروب الجهل، شتى بقاع الأرض، حتى نشأة علم الأدوية الحديث - والذي وضع أساسه علماء المسلمين، وها هي الأحاديث النبوية تنطق بحكمة وعلم من أنزل الوحي على عبده الأمين:  
 \* (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء) (البخاري).  
 \* (إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواءً فتداووا، ولا تتداووا بمحرّم) (أبو داود).

\* (عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً به جرحٌ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادعوا له طبيب بني فلان، فدعوه فجاء فقالوا: يا رسول الله ويعني الدواء شيئاً، فقال: سبحان الله وهل أنزل الله من داء في الأرض إلا جعل له شفاء تعني الطبيب؟ قال: نعم) (أحمد).  
 \* (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بن كعب ففقطعه منه عرقاً ثم كواه عليه) (مسلم).

## 3/9 النظافة:

النظافة من صميم العبادات في الإسلام، الذي انطلق من جزيرة العرب مهد الجاهلية وأهلها في ذلك الزمان؛ نبراساً على أن الوحي ليس نابعا من هذه البيئة؛ بل هو نور أنزله الله بعلمه، لم يترك الإسلام أمراً من أمور النظافة الشخصية إلا وجه إليه وهدى:

أ - **الغسل:** من آيات التربية الإسلامية الصحية ضرورة الاستحمام بعد الجماع، وهو في هذه الحالة فرض لا يصح أداء الصلاة أو مناسك الحج إلا به، ولغير ذلك فإن الاغتسال سنة مؤكدة لصلاة الجمعة الأسبوعية، قال تعالى:

<sup>2</sup> قاموس الفيروز آبادي: النسمة أصغر الحيوان.

<sup>3</sup> نربط فوهة

<sup>4</sup> أي مغطاة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا ﴾. [النساء: 43].

﴿ ... وَإِنْ كُنْتُمْ جُنْبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. [المائدة: 6].

وفي الحديث الشريف :

\* (حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام: يغسل رأسه وجسده) (مسلم).  
\* (غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وسواك ويمس من الطيب ما قدر عليه) (متفق عليه).

\* (من جاء منكم الجمعة فليغتسل) (البخاري ومسلم).  
\* (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل يوم الفطر ويوم الأضحي) (ابن ماجه)  
\* (وقت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قص الشارب وتقليم الأظفار وحلق العانة ونشف الإبط أن لا نترك أكثر من أربعين يوماً) (النسائي وأبو داود وأحمد).  
وقد كشفت دراسات أمراض الجلد أهمية الاستحمام لإزالة إفرازات العرق وما يعلق به من قدر، وما يتكاثر به من بكتريا تصيب الجلد أو الجسم عامة؛ وتفسد الرائحة.

ب - الوضوء: قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ... ﴾ [المائدة: 6].

يؤكد الطب الحديث الفوائد الصحية العظمى للوضوء في تطهير الجسم ومنع انتشار الأمراض، فقد أثبت دور اليدين كناقل رئيسي للميكروبات، كما أثبتت البحوث التجريبية دور الوضوء الفعلي في الحد من أعداد البكتريا على سطح الجلد، والأحاديث التي تدعو إلى العناية بالوضوء وتشرح كيفية كثيرة نسوق منها:

\* (الطهور شطر الإيمان) (مسلم).  
\* (لا صلاة لمن لا وضوء له) (أبو داود).  
\* (مقتاخ الصلاة الطهور) (الترمذي وأبو داود).  
\* (لا يقبل الله صلاة إلا بطهور) (ابن ماجه).  
\* (إن أمتي يذعون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل) (متفق عليه).  
\* (إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه -فمه- فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار -أطراف أجفان- عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أدنيه، فإذا غسل رجله خرجت الخطايا من رجله حتى تخرج من تحت أظفار رجله) (النسائي).

\* (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ) (مسلم).

بل سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوضوء أيضاً لغير الصلاة:

\* (سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْجُنُبِ هَلْ يَنَامُ أَوْ يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ، قَالَ نَعَمْ، إِذَا تَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ) (ابن ماجه).

\* (إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَعُودَ فَلْيَتَوَضَّأْ) (مسلم).

\* (إِذَا أُتِيتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ) (متفق عليه).

كما يسن الوضوء عند الغضب وقراءة القرآن والحديث، وتلقي العلم وغير ذلك. وقد بين الطب الحديث أيضاً فوائد الاستنثار أثناء الوضوء في منع الكثير من الأمراض التي تدخل الجسم عن طريق الأنف (الاستنثار: إدخال الماء إلى الأنف ثم إخراجها)، وهذه أحاديث تدعو إلى العناية بالاستنثار:

\* (إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً ثُمَّ لِيَسْتَنْثِرْ) (النسائي).

\* (أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّ بَيْنَ الْأَصَابِعِ وَبَالِغٌ فِي الْأَسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا) (الترمذي).

\* (عن علي رضي الله عنه أَنَّهُ دَعَا بِوَضُوءٍ فَتَمَضَّضَ وَاسْتَنْشَقَ وَنَثَرَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى، فَقَالَ هَذَا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا طَهْرٌ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (النسائي).

**ج - الاستنجاء:** تنظيف المخرجين عقب قضاء الحاجة، من المقدمات الواجبة للوضوء، وهو أمر له أهميته الكبيرة في الحد من التلوث وانتشار الأمراض المعدية، وتعالوا نستعرض الأحاديث النبوية التي تعد ثقافة متكاملة في أساليب الصحة العامة وفي حماية سطح الجلد ومنافه من تسلل الأمراض:

\* (عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تَبَرَّرَ لِحَاجَتِهِ أَتَيْتُهُ بِمَاءٍ فَيَغْسِلُ بِهِ) (البخاري).

\* (مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ غَائِطٍ قَطُّ إِلَّا مَسَّ مَاءً) (ابن ماجه).

\* (عن عائشة، قالت (تَعَلَّمَ نِسَاءُ الْمُسْلِمِينَ): مُرْنُ أَرْوَاجِكُنَّ أَنْ يَسْتَطِيبُوا بِالْمَاءِ، فَإِنِّي أَسْتَحْيِيهِمْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَفْعَلُهُ) (الترمذي).

**د - تقليم الأظافر:** كشف الطب الحديث بعد قرون من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام، وأمره بتقليم الأظافر ضمن سنن الفطرة، أهمية ذلك لصحة الفرد، منعاً لتخزين الأوساخ، بما تحمله من بكتريا وفطريات وفيروسات وطفيليات:

\* (خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ وَالْأَسْتِحْدَادُ وَنَتْفُ الْإِبْطِ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ وَقَصُّ الشَّارِبِ) (البخاري ومسلم).

\* (يا أبا هريرة قلم أظفارك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها) (الغزالي في الإحياء).

**هـ - الشعر:** أمرنا رسولنا الكريم بالعناية بالشعر في سائر أنحاء الجسم، فأمر بإزالته من الإبطين والعانة وبقص الشارب، وقد أثبت الطب الحديث ضرورة ذلك لمنع نمو البكتريا والروائح الكريهة بسبب إفرازات الغدد العرقية في الإبطين والعانة، ولمنع

تراكم آثار الطعام وإفرازات الأنف في الشوارب أو تجمع الملوثات بها، كما جاء في حديث سنن الفطرة أعلاه.

والإسلام رسالة حضارة أحدثت طفرات في الجاهلية العربية، ومنها فطرة في العناية بحسن المظهر والزينة فقال تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 31].

وجاء في السنة النبوية:

\* (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فدخل رجلٌ ثائر الرأس والحية، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن اخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان) (مالك).

\* (أن أبا قتادة الأنصاري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لي جمّة أفارجلها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم وأكرمها) (مالك).

\* (أتانا النبي صلى الله عليه وسلم فرأى رجلاً ثائر الرأس فقال: أما يجد هذا ما يسكن به شعره) (النسائي).

\* (خالفوا المشركين<sup>5</sup> وقرؤا اللحي<sup>6</sup> واحفوا الشوارب<sup>7</sup>) (متفق عليه).

و - الختان: يمنع تراكم الإفرازات وما تختزنه من بكتيريا قد تسبب التهابات تمتد إلى الجهاز البولي والتناسلي، والختان سنة من سنن الفطرة للرجال - كما جاء في حديث الفطرة الذي سقناه من قبل، أما ختان الإناث فلم يسنه الإسلام أصلاً ولم يأمر به، وإنما أجازة النبي عليه الصلاة والسلام لمن يشاء ولكنه نهى عن المغالاة فيه حتى لا يؤثر على وظائف الأعضاء، أو يضر بالعلاقة الزوجية:

\* (لا تُنْهَكِي فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْطَى لِلْمَرْأَةِ وَأَحَبُّ إِلَى الْبَعْلِ) (أبو داود).

ز - السواك ونظافة الفم: في المدرسة الطبية لمحمد بن عبد الله تعلم المسلمون أهمية نظافة الفم والأسنان، قبل نشأة مدارس وعلوم طب الأسنان:

\* (لَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرِهِمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ) (الترمذي).

\* (السَّوَاكُ مَطَهْرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاءٌ لِلرَّبِّ) (البخاري).

\* (ما جاءني جبريلُ إلا أوصاني بالسَّوَاكِ، حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفَرِّضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي، وَلَوْ لَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَضْتُهُ لَهُمْ، وَإِنِّي لَأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي - أَيِ أَزِيلُ جِزْءاً مِنَ اللَّثَّةِ لِكَثْرَةِ السَّوَاكِ) (ابن ماجه).

\* (إِذَا تَوَضَّأْتَ فَمَضْمُضْ) . (أبو داود).

\* (مَضْمُضُوا مِنَ اللَّبَنِ فَإِنَّ لَهُ دَسَمًا) (أبو داود).

<sup>5</sup> الجحوس

<sup>6</sup> أي أثر كوها

<sup>7</sup> استقصوا قصها

خرج صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى خيبر. . . (ثم دعا بأطعمة فلم يؤت إلا بسويق<sup>8</sup> فأكلوا وشربوا، ثم دعا بماء فمضمض فاه) (ابن ماجه).

\* (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلى بالليل ركعتين ركعتين ثم ينصرف فيستاك) (ابن ماجه).

\* (كان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوك قبل أن يتوضأ) (أبو داود).

\* (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام بالليل يشوص فمه بالسواك) (متفق عليه).  
تتضافر هذه الأحاديث لتؤكد المصدر الرباني لسنة النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم.

من ناحية أخرى كشفت دراسات حديثة عن المزايا الطبية لشجرة الأراك -مادة السواك- بالذات، وهو عود نباتي ينمو بالحجاز، به كيماويات مزيلة لصفار الأسنان، وزيت عطرية مطهرة.

#### 4/9 الصلاة:

الصلاة - كعبادة - عماد الدين وركنه المكين، وهي مدرسة المسلم ودرعه أمام همزات الشياطين، ولها إلى جانب ذلك فوائد صحية وطبية عميقة، منها: تنشيط شرايين المخ وتقوية جدران المخ الدماغية، ومنها تجنب جلطة الساق الوريدية، وقرح الظهر التي كثيرا ما تصيب قلبي الحركة، وإذا تأملنا في اختيار أوقات الصلوات الخمس لرأينا آيات أخرى لحكمة الحكيم العليم، فأوقات الصلاة تتناسق مع أوضاع الشمس: يمتد وقت الفجر من حين تكون الشمس مائلة 190° تحت أفق الشروق إلى وقت ظهورها، بينما يمتد المغرب من غروب الشمس حتى تميل 19° تحت أفق الغروب، وذلك وقت العشاء، والظهر عندما تكون الشمس رأسية فوق الرؤوس تماما فيختفي الظل، بينما العصر أوانه عندما يكون ظل الشيء كمثلته. كما تتناسب أوقات الصلاة مع نظام الحياة اليومي وأحوال جسم الإنسان، فيأتي الفجر والجسم بعد لم ينفذ كسل النوم، والظهر في ذروة العمل والنشاط، والعصر بعد كلال الجسم من العمل والسعي، والمغرب في نهاية صخب النهار وبداية سكون النفس والعقل، وأخيرا يأتي العشاء إيذانا بالنوم والراحة.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: 103].

ومن العسير أن نحصي هنا الشواهد من القرآن والسنة، التي تدعو لإقامة الصلاة والعناية بها، واعتناء ما تفتح على المرء من آيات رضا المولى في الدنيا والآخرة.

#### 5/9 الحجر الصحي:

أحد أساليب الطب الوقائي الذي لم تعرفه البشرية إلا في القرن الماضي: سنه المصطفى عليه الصلاة والسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا بوحى من العلي القدير، للحد من انتشار مرض الطاعون فقال:

<sup>8</sup> طعام من دقيق الحنطة والشعير



\* (إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رَجَزٌ سُلِّطَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ - أو على بني إسرائيل - فإذا كان بأَرْضٍ فلا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ، وإذا كان بأَرْضٍ فلا تَدْخُلُوهَا) (مسلم).

\* (إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ) (البخاري ومسلم).

\* (عن عائشة رضي الله عنها . . . قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ . . . فما الطَّاعُونَ؟ قال: عُدَّةُ كَعْدَةِ الْبَعِيرِ، الْمُقِيمُ فِيهَا كَالشَّهِيدِ، وَالْفَارُّ مِنْهَا كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ) (أحمد).

ومن المدهش أيضا في الحديث الأخير وصف الرسول الكريم لأعراض الطاعون بدقة تتفق مع الوصف العلمي.

كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باعتزال مرضى الجذام في قوله:

\* (وَفَرِّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ) (البخاري).

## 6/9 حماية البيئة:

من عجب أن يرشد النبي صلى الله عليه وسلم وقد عاش في بيئة وزمان لا يعرف ولم يكتشف الطفيليات وأخطارها، ولا وسائل انتشارها والحد منها، إلى فضل الإجراءات الوقائية التي عرفها الطب الوقائي الحديث بعد قرون طوال، وقد ثبت الآن أن الطفيليات كالبلهارسيا والإسكارس والأنثروببوس والأميبا وغيرها - والتي تكمل دورة حياتها في جسم الإنسان - إنما تفسد بالجفاف وبارتفاع درجة الحرارة، فتأمل أحاديثه صلى الله عليه وسلم في منع انتشار الطفيليات والحفاظ على نظافة البيئة والموارد المائية:

\* (اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: الْبِرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةَ الطَّرِيقِ وَالظِّلَّ) (أبو داود).

\* (اتَّقُوا اللَّاعِنِينَ، قالوا: وما اللَّاعِنان يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: الذي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ) (أبو داود).

\* (لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ) (النسائي).

\* (لَا يَغْتَسِلُ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ) (مسلم).

وتأمل أيضا ما يتعلق بذلك من الأمر بالاستنجاء بعد قضاء الحاجة، كما فصلنا من قبل.

وفي التوجيه لحماية البيئة أيضا علمنا الإسلام:

### أ. إمطة الأذى عن الطريق:

\* (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ عُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) (البخاري ومسلم).

\* (. . . وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَ) (البخاري ومسلم).

\* (الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ. . .) (مسلم).

### ب. الرفق بالحيوان:

\* (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُمَثَّلَ بِالْبَهَائِمِ) (ابن ماجة)

\* (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِمِ) (ابن ماجة).

#### ج. حماية الأشجار:

\* (مَنْ قَتَلَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا أَوْ أَحْرَقَ نَخْلًا أَوْ قَطَعَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً أَوْ دَبَحَ شَاةً لِأَهَابِهَا لَمْ يَرْجَعْ كَفَافًا) (أحمد).

#### 7/9 مرض الكلب:

إعجاز آخر للطب النبوي حين أرشدنا إلى الأسلوب العلمي الرفيع في الاحتراز من الأنية والمياه التي يَرُدُّهَا الكلاب، خوفا من نقلها مرض الكلب - الرئيس - الخطير وعدة أمراض أخرى:  
\*(طُهورُ إِنْءٍ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أُولَاهُنَّ بِالْثَرَابِ) (مسلم).

الحكمة في الغسل سبع مرات أُولَاهُنَّ بِالْثَرَابِ: أن فيروس الكلب دقيق متناه في الصغر، ومن المعروف أنه كلما صغر حجم الميكروب كلما زادت فعالية سطحه للتعلق بجدار الإناء والتصاقه به، ولعاب الكلب المحتوي على الفيروس يكون على هيئة شريط لعابي سائل، ودور التراب هنا هو امتزاز الميكروب -بالالتصاق السطحي- من الإناء على سطح دقائقه.

#### 8/9 الذباب:

ترجع فكرة اللقاحات والأمصال إلى اكتشاف الطب الحديث أن العلاج بذات السم هو خير وسيلة للنجاة منه، لقدرة الخلايا الحية على إنتاج أجسام مضادة، وقد أثبتت دراسات أجريت على الذباب، أنه حين يحمل في جناحه بعض الجراثيم تتولد به أجسام مضادة لهذه الجراثيم (وقد رأينا من قبل أن هذا ليس شأن الذباب وحده)، وفي الحديث الشريف:

\*(إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنْءٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كَلَّةً ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِي الْآخَرِ دَاءٌ) (البخاري).

والحديث يقرر أولا ما لم يعرفه جيل الرسالة عن دور الذباب كناقل رئيسي للأمراض: آية شاهدة على الإعجاز العلمي لما هدى الله به رسوله الكريم.

## الباب الرابع في معارف متنوعة

### الفصل العاشر إشارات علمية عامة

1/10 قوانين الوجود:

قال تعالى في محكم التنزيل:

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: 5 - 7]<sup>(1)</sup>.

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ [الحجر: 19]<sup>(2)</sup>.

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: 8]<sup>(3)</sup>.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49]<sup>(4)</sup>.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر: 21]<sup>(5)</sup>.

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: 2]<sup>(6)</sup>.

(1) الحسبان: التدبير الدقيق (الوسيط)، والحساب؛ أي بحساب (اللسان)، أي أن حركة الشمس والقمر تجري طبقاً لنظام دقيق منذ خلقهما الله تعالى، ولم نتعرف على دقائق هذا النظام إلا حديثاً، حوالي 30 سنة؟ ... بحسابات رياضية في غاية العمق والدقة وخاصة في حالة القمر (المنتخب).

(2) وزن الشيء: قدره (الوسيط)، ومعنى موزون: القدر المعلوم وزنه وقدره عند الله تعالى (اللسان)، أي أن كل نبت . . . في خلقه دقة وإحكام وتقدير (الظلال)، وتقرر هذه الآية حقيقة علمية لم تعرف إلا بعد الدراسات العملية للنبات، وهي: إن كل صنف من النباتات تتماثل أفراده من الوجهة الظاهرية تماثلاً تاماً، وفي التكوين الداخلي نجد أن التناسق تام والتوازن دقيق في كافة أجهزة النبات المختلفة، وكذلك بين الخلايا (المنتخب).

(3) كل شيء عند الله بمقدار وحساب صغيراً أو كبيراً (المنتخب).

(4) القدر: مقدار الشيء وحالاته المقدرة (الوسيط)، لقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة . . . في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب . . . ووضع الأرض لتكون صالحة والعلاقة بين الأحياء وبين الظروف حولها (الظلال).

(5) أي ولا ننزله إلا حسب حاجة الخلق والمصالح كما نشاء ونريد (الصفوة).

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾

[المؤمنون: 18].

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

[الزخرف: 11]<sup>(7)</sup>.

تؤكد الآيات ما بينته المعارف الحديثة من أن كل شيء في السموات والأرض يخضع لاتزان دقيق ومحسوب، فالأجرام السماوية تتطلق في الفضاء بسرعات محسوبة في اتجاهات مقدرة، بحيث يتزن تجاذبها مع قوى الطرد الناشئة عن حركتها، فتبقى بذلك في مساراتها النسبية بعيدا عن بعضها البعض إلى أن يشاء الله، فالشمس - ببعدها المحسوب عن الأرض - تمدنا بالطاقة المحسوبة المناسبة لحفظ حياة الكائنات، ولو اقتربت الشمس قليلا من الأرض لاحترق كل من عليها، ولو ابتعدت قليلا لماتت الكائنات أو تجمدت، والقمر كذلك يؤثر على حركة المد والجزر في البحار والمحيطات، ووضعه محسوب لو اقترب عنه زاد تأثيره على مياه البحر والمحيط حتى تغرق المعمورة.

ونظم الحياة على كوكب الأرض تحكمها توازنات دقيقة: فالهواء الذي نتنفسه يظل دائما بتركيبه المناسب لحياة الكائنات، فلا يزيد فيه الأكسجين بلا حساب فتحترق الكائنات، ولا يستهلك فتتوقف الحياة، وذلك بفضل عمليات التمثيل الكلوروفيلي بالنبات، التي تعيد لنا ما يعادل 400 - 500 مليون طن أكسجين سنويا، تعوض تماما كل ما تستهلكه الكائنات الحية في التنفس، وكذلك الغلاف الجوي بطبقاته المختلفة ومكوناته - كالأوزون وغيره - التي تؤدي دورا هاما في حماية الحياة على الأرض يتجدد تركيبه دوما، أخذا وعطاء مع الهواء الجوي ومع الأشعة الكونية.

(6) قَدَّر: تمهل وتفكر في تسوية أمر وتهينته (الوسيط)، والتقدير: التروية والتفكير في تسوية أمر وتهينته (اللسان) قدر حجمه وشكله وقدر وظيفته وعمله وزمانه ومكانه وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير . . . وينفي فكرة المصادفة نفيا باتا (الظلال)، وأثبت العلم الحديث أن كل الموجودات تسير وفق نظام دقيق (المنتخب).

(7) الماء . . . فهو مقدر موزون لا يزيد فيغرق، ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة (الظلال)، أي بمقدار ووزن معلوم بحسب الحاجة والكفاية، قال البيضاوي: أي بمقدار ينفع ولا يضر (الصفوة).

والكائنات الحية - برية وبحرية وطيورا وحشرات - يحكم بقائها توازنات دقيقة تربط فيما بينها وبين الظواهر الجوية والجيولوجية والنباتية، وفي جسم الإنسان دور محسوب بدقة لمقادير كل عنصر من العناصر الكيميائية - حتى الشحيح منها - سواء في ضبط الأكسجين في الدم عن طريق التنفس، الذي تتحكم فيه مراكز إحساس على الشريان الأورطي والشرايين المتجهة إلى المخ فترسل إشارات عصبية تؤدي إلى الشهيق والزفير، أو في ضبط نسبة الماء في الدم، التي تتحكم فيها مجموعة من النظم المعقدة: من غدد العرق إلى الغدة النخامية التي تتحكم في عمل الكلّي للتخلص من الماء الزائد، كل هذه الاتزانات وغيرها تعبر عنها ما سقناه من آيات الذكر الحكيم أصدق تعبير.

## 2/10 دورات الحياة:

لكل كائن حي - حيوانا كان أم نباتا - دورة حياة يتفاعل فيها مع التربة والماء والهواء وغيرها من الكائنات، فتأمل الإشارات البليغة إلى خروج الكائن الحي من الجماد الميت، وإلى إبداء الحياة ثم إعادتها:

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 27]<sup>(1)</sup>.

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ نَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: 95].

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 31]<sup>(2)</sup>.

(1) دورة الحياة والموت هي معجزة الكون وسر الحياة نفسها، والسمات الرئيسية أن الماء وثنائي أكسيد الكربون والنتروجين والأملاح غير العضوية في التربة تتحول بالشمس والنبات الأخضر وأنواع من اليكتريا إلى مواد عضوية هي مادة الحياة في الحياة والنبات، ثم الشق الثاني من الدورة ... تحلل ... وما تذكره الآية الكريمة هو الإعجاز بعينه (المنتخب)، ... وتتسع الدائرة فيموت الحي كله، ولكن خلاياه تتحول ذرات تدخل في تركيب آخر ثم تدخل في جسم حي ... وهكذا دورة دائية في كل لحظة من لحظات الليل والنهار (الظلال) يخرج الميت من الحي: النطفة من الإنسان الحي، والبيضة من الدجاجة، الحي من الميت: الإنسان من النطفة والنبته من الحبة (أسير التفاسير).

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْفِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: 19]<sup>(3)</sup> ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج: 13]<sup>(4)</sup>

كما أثبتت المعارف الحديثة أن دورة الحياة في الإنسان ترتبط بدورة العناصر المحيطة: فمن عناصر الأرض يتكون الإنسان، وعلى نتائجها يتغذى، ويتفاعل معها أخذًا وعطاءً في عمليات التمثيل الغذائي والإخراج وتجديد الخلايا طوال حياته، ثم إليها يتحلل بعد مماته.

وهذه أمثلة لبعض دورات الحياة والموت:

#### أ . دورة الخلايا الحية:

والتي تتمثل في الاستهلاك ثم التجدد المستمر لخلايا الإنسان وغيره من الكائنات الحية، فالخلايا الحية تتحول إلى مواد غير حية (الميت من الحي) لتحل محلها خلايا جديدة (الحي من الميت)، مثال ذلك: الخلايا الجلدية تتجدد كل 59 - 75 يوما، خلايا الدم الحمراء كل 120 يوما، الصفائح الدموية كل 7-10 أيام، كرات الدم البيضاء تتجدد كل 6-12 ساعة.

#### ب . دورة الكربون:

الكربون هو العمود الفقري للمركبات العضوية، التي تتكون منها سائر الخلايا الحيوانية والنباتية. يعتمد الإنسان في غذائه على الحيوان والنبات، بينما يعتمد الحيوان في غذائه - بدوره - على النبات، ويحصل النبات على غذائه من الهواء الجوي بتمثيل غازي ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء أثناء النهار من خلال عملية التمثيل الكلوروفيلي؛ وبذلك يتحول الهواء "الميت" إلى خلايا نباتية "حية"، يتغذى عليها الحيوان والإنسان لتكوين خلاياهم "الحية" من نواتج هضم الطعام "الميتة"، يتجدد ثاني أكسيد

(2) وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها (الظلال).

(3) وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة . . . وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين . . . والجثة التي ترمى في الأرض . . . هي مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات (الظلال).

(4) البدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلي إلى النشأة الأولى والآخرى، إلا أنهما حدثان دائبان كل لحظة . . . والكون كله في تجدد مستمر وبللى مستمر (الظلال).

الكربون في الهواء الجوي بعمليات التنفس في الإنسان والحيوان والنبات "الميت من الحي" وبتحلل هذه الكائنات بعد موتها.

### ج . دورة النتروجين:

يدخل النتروجين في تركيب الأحماض الأمينية، التي منها يتركب بروتين الخلايا الحيوانية الحية. يحصل الإنسان على البروتين من غذائه على الحيوان وبعض النباتات، ويتغذى الحيوان بدوره على البروتين النباتي، وبذلك يكون النبات هو المصدر النهائي للنتروجين في الكائنات الحية، يحصل النبات على النتروجين من سماد الأرض الطبيعي أو الصناعي "الميت"، وينتج السماد الطبيعي " العضوي" من فضلات وتحلل الكائنات الحية في التربة – حيث تتحلل بروتيناتها إلى نشادر تحوله البكتريا إلى نترات ونترات أو إلى نتروجين جوي، أما السماد الصناعي فينتج بعمليات كيميائية من النتروجين الجوي.

### د . دورة الطاقة:

يستمد النبات طاقة الشمس ليصنع الغذاء الكربوهيدراتي والبروتيني في صورة خلايا نباتية "حية"، تستمد منها خلايا الإنسان والحيوان حاجتها من الطاقة، ومن تحلل بقايا الكائنات الحية في باطن الأرض منذ آلاف السنين نتجت سائر أنواع الوقود كالفحم والبتترول والغاز الطبيعي (انظر 15/3 – الوقود) التي يستغلها الإنسان – مع ما يقطعه من سيقان الأشجار – لإنتاج الطاقة.

### 3/10 تطابق الخلق:

كل المخلوقات – حية وجامدة – تتركب من وحدات نمطية متطابقة، لا تختلف ولا تتفاوت مهما تعدد الخلق وتكرر، فكل ذرات الخلق حولنا تتكون من بروتونات موجبة ثابتة الكتلة والشحنة، ونيوترونات متعادلة ثابتة الكتلة، وإلكترونات سالبة ثابتة الكتلة والشحنة – في شتى العناصر والمواد، والمواد إما عنصرية " من نوع واحد من العناصر" أو مركبة. العناصر – فلزية أو غير فلزية – ذراتها جميعا

متماثلة، وتترتب ذراتها في أشكال هندسية متطابقة على مسافات وبزوايا ثابتة مهما تعددت ببلايين البلايين (السنتيمتر المكعب من الحديد مثلا يحوى حوالي  $10 \times 8.5^{22}$  ذرة، أي 85 ألف مليون مليون مليون ذرة)، وكل مركب كيميائي يتרכب باتحاد ذرات من عنصرين أو أكثر بنسب ثابتة وبتوزيع فراغي محدد وخواص مميزة ثابتة، وكل عضو من أعضاء الكائنات الحية - حيوانية أو نباتية - يتרכب من أنواع محددة من الخلايا مهما تعددت تلك الخلايا، وكل كائن حي يخلق وينمو ويتحلل بنفس النمط ونفس التشريح والوظائف، ولا يحيد عنه قيد أنملة أي واحد من أفرادهِ عبر الأجيال، وهذا ما قرره القرآن المعجز في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المك: 3، 4]<sup>(1)</sup>

#### 4/10 الزوجية العامة:

تشير الآيات القرآنية إلى أن المخلوقات عامة - حية أو جامدة (كل شيء) أزواج، أي أن ظاهرة الزوجية لا تقتصر على الحيوان والنبات، كما يتضح في الآية:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49]<sup>(2)</sup>.

والزوج لغة: النوع من كل شيء، والزوجان: اثنان أحدهما نقيض الآخر. لو تأملنا مكونات الذرة لوجدنا للبروتون الموجب قرينا سالبا: الأنثى بروتون، وفي الذرة المتعادلة: لكل بروتون إلكترون يعادله، والإلكترونات "السالبة"

(1) تفاوت الشينان: اختلفا في التقدير، وتفاوت الخلق: اختلف ولم يكن سويا (الوسيط)، أي ما تري اختلاف ولا اضطرابا (اللسان).

(2) العامة تخطى فتنن الزوج: اثنان، وليس ذلك من مذاهب العرب، إذ كانوا لا يتكلمون بالزوج موحدا في مثل قولهم: زوج حمام، بل يثنونه فيقولون: عندي زوجان من الحمام، أي ذكر وأنثى، أو زوجان من الخفاف، أي اليمين والشمال، ويدل على ذلك أيضا قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾: اثنين، وقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، وقوله تعالى ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ المراد: ثمانية أفراد (اللسان)، وفي الآية حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض. وربما في الكون... وهي ظاهرة في الأحياء، ولكن كلمة "شيء" تشمل غير الأحياء أيضا... وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ 14 قرنا فإن ذلك أمر عجيب عظيم (الظلال).



## في معارف متنوعة

قرينها البوزيترون الموجب، بل إن النيوترون المتعادل له قرين "أنتى نيوترون"، ليس هذا فحسب بل إن الأجرام السماوية المرئية المنبثقة في الفضاء اللانهائي يعتقد الآن أن لمادتها قرينا غير مرئي يطلق عليه اسم: المادة المظلمة، التي بمثابة الصورة السلبية لمادة الكون، والله أعلم (انظر أيضا موضوع 5/6: زوجية الكائنات الحية).

## الفصل الحادي عشر

### في حقائق التاريخ

#### 1/11 المنهج التاريخي:

حث القرآن الكريم البشر مرارا وتكرارا على السير في الأرض والترحال، لاستكشاف آثار الأمم السابقة استقراء للتاريخ وسنن الله فيه، وهو نهج لم يتوصل إليه علم التاريخ إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، باكتشاف آثار طروادة وحجر رشيد، فانفتحت للبشرية أبواب المعرفة التاريخية، وتأمل الآيات:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [النحل: 36].

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: 9].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 109].

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: 137، 138]<sup>(1)</sup>.

وانظر أيضا آيات: آل عمران: 137، الأنعام: 11، النمل: 69، الروم: 42، فاطر: 44، غافر: 82.

#### 2/11 التاريخ الطبيعي:

(<sup>1</sup>) بالبحر الميت وهو مكان الهالكين من قوم لوط (أيسر التفاسير).

كذلك تعتمد دراسة التاريخ الطبيعي، أي دراسة تاريخ تطور الطبقات الجيولوجية للأرض، وتاريخ الحياة على وجهها وفي بحارها؛ تعتمد على التنقيب في أنحاء الأرض بحثاً عن الحفريات القديمة وفحصها وتحليلها بالوسائل العلمية، كالفحص المجهرى والتأريخ بالكربون المشع وغيرها، مصداقاً للآية التي تربط بين قدرة الله في نشأة الخلق أول مرة وفي إعادته مرة أخرى يوم القيامة.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 20] (2).

### 3/11 فرعون موسى:

اندثر التاريخ الحافل لقدماء المصريين بانتهاء ما يسمى بالأسرة الحديثة، وتتابع الغزو اليوناني ثم الروماني، وأسدل التاريخ ستاره على أخبار ذلك الزمان مع ما ابتلغته أطلال المدن وحريق مكتبة الإسكندرية وغير ذلك من عوامل الدهر، عدا ما بقي من روايات في بعض المخطوطات المتناثرة كتاريخ هيرودوتس، وظل التاريخ سرا مغلقاً مدونا في أعماق المقابر الفرعونية وعلى جدران بقايا المعابد والمسلات، بلغة لم تفك طلاسمها إلا مع بدايات القرن التاسع عشر عقب اكتشاف حجر رشيد، ثم في بدايات القرن العشرين باكتشاف مومياوات الفراعنة — وما يصحبها من كنوز دفينية، وهنالك عرف العالم أيضاً مدى حرص الفراعنة على تحنيط جثثهم وخاصة جثث الملوك والعظماء، ظناً منهم أن ذلك يضمن لهم البعث والخلود . لقد كشف ذلك التاريخ عن إعجاز آخر للمعارف القرآنية التي أكدت في وحي الخالق العليم أن جثة فرعون موسى قد بقيت سالمة بعد هلاكه غرقاً في مطاردة نبي الله موسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ أَمُنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. الْآنَ

(2) ترى هنالك في الأرض ما يدل على النشأة الأولى... كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة، كيف نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟... وكيف وجد فيها أول كائن حي، ويكون ذلك توجيهاً من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى، والاستدلال بها عند معرفتها على النشأة الآخرة (الظلال)، تحت على السير في الأرض ليكشفوا عن كيفية بدء خلق الأشياء من حيوان ونبات وجماد، فإن آثار الخليقة الأولى منطبقة بين طبقات الأرض وعلى ظهرها، وهي لذلك سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدئها حتى الآن (المنتخب).

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿إيونس: 90 – 92﴾<sup>(3)</sup>.

ولا ريب أن جثة الفرعون قد انتشلت بعد انتهاء المطاردة واندحار جيش فرعون لتحنط مع مومياوات أسلافه، والتي اكتشفها الكشوف الأثرية واحدة بعد الأخرى. ترجح الدراسات التاريخية أن فرعون الخروج هو أمنفتاح (أو مرنبتاح) الذي كان عصره بين عامي 1231-1220 قبل الميلاد، والذي ترقد مومياؤه في المتحف المصري بالقاهرة، وهناك آراء أخرى تميل إلى كون فرعون الخروج تحتمس الثالث (1501 – 1447 قبل الميلاد)، وأيا كان الفرعون فالمومياة قد حنطت وبقيت لتكون عبرة للأجيال، ولم يكن أحد يعرف أن جثث الفراعنة كانت تحنط وأنها ستظهر كلها إلى النور في الزمان البعيد، وذلك أبلغ برهان على صدق القرآن العظيم.

#### 11/ 4 التوراة والإنجيل:

أوحى الله تعالى إلى نبيه الأُمِّي بآيات تؤكد ضياع وإخفاء مصادر الكتب السماوية السابقة، وتحريف أحكامها، وتحويرها وتعديلها بأيدي الأخبار والرهبان، قال تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].  
﴿قَوْلٍ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].  
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146].  
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

<sup>(3)</sup> يظهر أن الآية الكريمة تشير إلى أن جسم فرعون سيبقى محفوظا ليراه الناس (منذ) . . . في أواخر القرن الـ 13 قبل الميلاد الأسرة 19 (يعتقد أنه) منفتح بن-رمسيس (المنتخب).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176].

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19].  
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 71].

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78] <sup>(4)</sup>.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِنَبِيِّ إِسْرَٰئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰئِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93].  
﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].  
﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسِينَةِ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15].  
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ

<sup>(4)</sup> وانظر مصداق ذلك أيضاً في كتاب: القرآن معجزة المعجزات لأحمد ديدات، في ذكره لطبعات حديثة من الإنجيل يرسم القرآن، ونظام السور والآيات فيه، وكذلك ما جاء في الوقائع المنشورة لمؤتمر التنصير العالمي، بكلورادو 1986.

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [المائدة: 41].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31] <sup>(5)</sup>.

وقد ألقى البحث التاريخي الحديث الأضواء على تطور نصوص العهد القديم والجديد، والتي تختلف اختلافاً بيناً عن النصوص الأصلية لكل من التوراة العبرية والإنجيل الآرامي، والتي لا يعرف لها أثر أو مكان، ولم تبدأ كتابة النصوص الحالية للتوراة إلا بعد رحيل موسى بأكثر من ألف عام، وتضم - التوراة - إلى جانب ما بقي من وصايا موسى - التراث الشعبي والتاريخي والقضائي لبني إسرائيل عبر الأجيال، وأصبح من العسير وصفها بأنها -كتاب سماوي-، أما الإنجيل (العهد الجديد) فيضم أربع أناجيل باسم متى ومرقس ولوقا ويوحنا، ويعتقد أنها كتبت خلال القرن الثاني بعد رحيل المسيح عليه السلام، ويشك المؤرخون كثيراً - كما جاء في دائرة المعارف البريطانية - في نسبة هذه الأناجيل إلى أصحابها، وهذه الأناجيل في صياغتها إنما هي سرد لحياة عيسى عليه السلام، وقد حفلت فيما بينها باختلافات بينة، لا شك مرجعها إلى أن من كتبوها بشر مختلفون؛ في أزمان وأمكنة مختلفة، ثم جرت عليها الأيدي بالتعديل على مدى العصور، ولا يتسع المجال هنا لحصر وسرد هذه الاختلافات، سواء بين الأناجيل الأربعة بعضها البعض وأحياناً بين إصحاحات نفس الإنجيل، وكذلك العبارات والروايات التي تتعارض مع المنطق، مما لا يتسع له مجال هذا البرهان،

<sup>(5)</sup> سئل حذيفة رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل عبدوهم؟ قال: لا ولكن

أحلوا لهم الحرام فاستحلوه وحرّموا عليهم الحلال فحرموه.

وبينتها دراسات النصوص المسيحية المعتمدة (انظر المراجع)، ولكننا نذكر منها كمثال رئيسي بارز ما يتعلق بمولد المسيح وما يتعلق بقصة صلبه. تناول كل من إنجيل متى وإنجيل لوقا نسب عيسى من جهة أب هو يوسف النجار خطيب السيدة مريم العذراء، بينما المسيح عليه السلام — مثله كمثال أبينا آدم عليه السلام — لا أب له، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تختلف سلسلة النسب اختلافاً شبه تام بين روايتي متى ولوقا.

كذلك حفلت روايات صلب وقيام المسيح بتناقضات بين الأناجيل الأربعة، ولم يشهد الحواريون صلب المسيح ولم ينقل عن أي منهم رواية قاطعة، ومن أبرز ما يتضح من تحليل رواية الأناجيل — طبقاً لرواية إنجيل يوحنا — أن من ظنوه عيسى؛ عندما أنزلوه من الصليب على عجل قبل عطلة السبت؛ كان حياً بدليل العبارة الآتية:

(وأما يسوع فلما جاءوا إليه ليكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات، لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء — يوحنا 19/33 — 34)، وهذه الرواية تتناقض مع ما جاء في بقية الأناجيل عن مشهد الصلب.

ومن ناحية أخرى عندما التقى عيسى عليه السلام بحوارييه بعد محاولة الصلب كان بشراً حياً؛ ولم يكن روحاً آتية من العالم الآخر، ولكي يؤكد لهم ذلك — بنص الأناجيل — ويطمئنهم جاء في إنجيل لوقا: (فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً فقال لهم: ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم، انظروا يدي ورجلي إني أنا هو، جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ويتعجبون قال لهم أعندكم هاهنا طعام فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم — لوقا 24/37 — 43).

أما قصة قيامة المصلوب من قبره بشهادة مريم المجدلية، فروايات الأناجيل الأربعة هي أربع روايات مختلفة عن بعضها، لا تتفق فيها رواية مع الأخرى، كما يظهر بمقارنة الإصحاحات:

متى 28، مرقس 16، لوقا 24، يوحنا 20.

وصدق الله العظيم في كتابه الكريم:

﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

[النساء: 156-158].

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا قومه (ولا أتباعه من السلف الصالح لبضع قرون على الأقل) يعرفون تفاصيل ما أكدته القرآن الكريم وإلا لتناولها صلى الله عليه وسلم في حديثه للرد على أهل الكتاب، ومن المعروف أيضا أنه لم تظهر نسخة عربية من الكتاب المقدس (التوراة والأنجيل) إلا حوالي القرن العاشر الميلادي.

5/11 محمد بشارة موسى وعيسى:

كشف القرآن عما كان مستورا في نصوص التوراة والإنجيل عن التبشير ببعثة

محمد صلى الله عليه وسلم خاتما للمرسلين، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]<sup>(6)</sup>.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ. أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:

196، 197]<sup>(7)</sup>.

<sup>(6)</sup> قال كعب في ذكر صفاته (صلى الله عليه وسلم) في التوراة: مولده مكة وهجرته بظابة وملكه بالشام، وأمه الحمادون يحمدون الله على كل حال... إلا أن قال: يصلون حيثما أدر كنهم الصلاة، صفهم في الصلاة كصفهم في القتال.

<sup>(7)</sup> كعب الله بن سلام فقد قال: والله إني لأعلم أن محمدا رسول أكثر مما أعلم أن فلانا ولدي (أيسر التفاسير).



﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10].  
﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ. وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 47، 48].  
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6].

لم يكن النبي يعرف من هذه النصوص شيئا، ولو عرفه لأعلنه للملأ، وكما أوضحنا — كما ثبت تاريخيا — لم تكن ثمة ترجمة عربية لا للعهد القديم ولا العهد الجديد وقت نزول القرآن وبعده بعدة قرون؛ وإلا أثبتتها أو أشار إليها التراث العربي الزاخر.

#### أولا — في العهد القديم (التوراة):

أ — تتضح هذه النبوءات جلية في سفر التثنية من العهد القديم الذي جاء فيه أن رسالة التوحيد ستظهر في أمة أخرى، وأن نبيها سيكون من أبناء عموماتهم: (يقم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون — تثنية 18/15).

وجاء في سفر التثنية أيضا:

(أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به — تثنية 18/18).

والذي يدل على أن النبي المنتظر من أبناء إسماعيل قوله: -من إخوتكم- أي من أبناء إسماعيل لا أبناء إسحاق وإلا لكان يقال -نبي منكم أو من ذريبتكم- وأنه سيكون نورا صادرا من جزيرة العرب:

(وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعيير وتلألأ من جبل فاران (تشية 1/33 – 2). وفاران اسم قديم لمكة، والتي – بنص التوراة – أتى إليها إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل:

(فبكى إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر . . . وكان الله مع الغلام فكبر . . . وسكن في بركة فاران – تكوين 21/20 – 21). ومثله في نبوءة أشعيا:

(وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدنانيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان يأسكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب – أشعيا 21/13 – 15).

وكذلك إشارته في (أشعيا/ 42 – 11) إلى بلاد قيدار: (غنوا للرب أغنية جديدة لتسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر – أشعيا 42/10 – 12).

وقيدار هو ابن إسماعيل الذي ذكر أيضاً باسمه في (التكوين 25/13). كما تشير عبارات (أشعيا 42/11) أيضاً إلى مَنْ يَنشُدون من قمم الجبال تسبيحاً لله: إشارةً إلى التلبية أثناء الحج بعرفة ومنى والمزدلفة، للآتين من أقصى الأرض والمنحدرين في البحر والجزائر وسكانها!

ب – وأنه أُمِّي لا يعرف الكتابة:  
(أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة – أشعيا 29/12).

أي أنه لن يأتي بكلام من عنده بل سيردد ما يوحى إليه مصداقاً للآيات:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾  
[الشورى: 52].

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ. فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾

[النجم: 3 — 10].

﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 16 — 19] <sup>(8)</sup>.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِنَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: 30].  
﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾  
[العنكبوت: 48].

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9].

ج — وأنه سيكون مثل موسى، كما جاء في سفر التثنية من العهد القديم:

(أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصى به — تثنية 18/18).

أي صاحب رسالة جديدة للعالمين خلافا لعيسى عليه السلام، الذي كانت رسالته خاصة ببني إسرائيل، لتصحيح ما حرفوه من تعاليم موسى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾  
[سبأ: 28].

<sup>(8)</sup> كان رسول الله ﷺ يعالج من التزييل شدة، فكان يحرك لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه، فأنزل الله الآية . . . قال ابن عباس: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل (الصفوة)، كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى . . . الآية . . . رواه الترمذي (أيسر التفاسير).

بينما جاء في الأناجيل على لسان عيسى:

(لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل - متى 5 / 17).

(فأجاب وقال: لم أُرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة - متى 24/15).  
(هؤلاء الإثني عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة - متى 10 / 5 - 6).

كذلك تزوج موسى وقاد بني إسرائيل وأتى بشرائع وأحكام عملية، مثله في ذلك مثل محمد ﷺ، وما كان ذلك شأن عيسى.

د - وأنه سينطق باسم الله، كما ذكر أيضاً في سفر التثنية:

(ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه - تثنية 18 / 19).

وكل سور القرآن (عدا براءة) تبدأ بالبسملة، والمسلم يردد -بسم الله الرحمن الرحيم- مراراً في كل صلاة، ويبدأ بها كل عمل!

ثانياً - في أناجيل العهد الجديد:

أما الإنجيل فقد أتى ببشارة محمد بوصفه -المعزى- في النص العربي المتداول، وهو المقابل لكلمة **Comforter** الإنجليزية ، وكلاهما مترجم عن كلمة "باراكيليتوس" اليونانية في الترجمة اليونانية للإنجيل:  
(لكني أقول لكم الحق أنه خير لي أن أنطلق، لأنه لم أنطلق لا يأتاكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم - يوحنا 16 / 7).

(إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية - يوحنا 16 / 12 - 13).

وقد أثبت البحث في أصل كلمة -باراكيليتوس- أنها مأخوذة من العبرية -بيرقليط- بمعنى المحامي أو المدافع، وقد بين البحث في تاريخ اللغة أن هجاء هذه الكلمة في العبرية القديمة يطابق هجاء كلمة -بارقليط- التي تعني بالعبرية -المستوجب

## في معارف متنوعة

للحمد أو المحمود أو المحمد-، إذ لم تكن حروف المد بعد مستخدمة في الكتابة العبرية قبل القرن الخامس الميلادي.

كما أكدت نصوص الأنجيل (النص السابق: يوحنا 16/ 12 – 13) أن الرسول لن ينطق من تلقاء نفسه، بل سيبلغ ما يوحى إليه (وانظر: أولا – ب أعلاه)، وأنه سيأتي بعد رحيل عيسى (كما في يوحنا 16/ 7 أعلاه)، وأن رسالته ستنتقل من أمة أخرى غير بني إسرائيل:

(قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تحمل أثماره – متى 21/ 42 – 43).

### 11/ 6 أهل الكهف:

في كشوف أثرية حديثة، عثر على كهف بمنطقة "الرقيم" التي تبعد سبعة كيلومترات عن عمّان، وهي المشار إليها في الآية:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9] <sup>(9)</sup>.

وقد وجدت بجدران الكهف عبارات التوحيد، محفورة بلغات قديمة .

تصميم فتحات الكهف يحقق ما جاء بالآية التالية عن حماية منتصفه من نفاذ

أشعة الشمس، سواء من المشرق أو من المغرب:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: 17].

وفي قصة أهل الكهف آية علمية أخرى، هي -الضرب على الأذان- بمعنى

تعطيل حاسة السمع، حتى يستمر نومهم الطويل، إذ أن السمع هو الحاسة الوحيدة

التي تعمل أثناء النوم:

﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11].

<sup>(9)</sup> ذهب معظم المفسرين – قبل اكتشاف المنطقة – إلى أن الرقيم هو لوح كان مكتوباً فيه أسماء أهل الكهف وأنسابهم وقصصهم.

و من آيات هذه القصة كذلك: الإشارة إلى التقلب المستمر لأهل الكهف يمنة ويسرة أثناء نومهم الطويل، آية أخرى من آيات الإعجاز، فقد أثبت علماء طب الجلد أن النوم الطويل يؤدي إلى قرح الفراش، وانسداد الأوردة الدموية؛ والضغط على أعصاب القدمين، ومن هنا يبدو إعجاز القرآن في الإشارة إلى اللطف الإلهي بتقليبهم طوال نومهم الطويل:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ زِرَاعِيهِ  
بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَأْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ [الكهف: 18].

## الفصل الثاني عشر في نبوءات المستقبل

### 1/12 إعجاز القرآن وحفظه:

أ — وعد الله سبحانه بحفظ القرآن الكريم وبقائه إلى آخر الزمان؛ بعهد الله وقسمه، وقد كان، فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لم يعتز به تعديل ولا تحريف ولا اختلاف:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9<sup>(1)</sup>].

والحفظ الذي تكفل به الله سبحانه وتعالى هو للقرآن دون سائر الكتب السماوية كما يتبين من مقارنة الآية السابقة بآية [المائدة: 44]:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

فالحفظ للكتب السماوية السابقة كان منوطاً بأهل التوراة وأهل الإنجيل فما رعوها حق رعايتها، كما بينا من قبل (انظر 8 / 4).

ب — النبوءة القرآنية بأن العلم سيتقدم، وسيتعرف البشر على المزيد من آيات الإعجاز في رسالة الإسلام — وهو ما تحقق فعلاً — هي في حد ذاتها (أي النبوءة) إعجاز علمي تاريخي أكدته ويؤكدته، يوماً بعد يوم، تاريخ العلوم المطرد:

(<sup>1</sup>) معجزة شاهدة برهانية هذا الكتاب . . . الأحوال والظروف والملايسات والعوامل، التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون، ما كان يمكن أن تتركه مصوناً محفوظاً لا تتبدل فيه كلمة، ولا تحرف فيه جملة، لولا أن هناك قدرة خارجة عن إرادة البشر، أكبر من الأحوال والظروف والملايسات والعوامل، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل، وتصوره من العبث والتحريف . . . (مثل) ما صنعت الفرق في الحديث وما ترتب عليه من جهد لغزيلة السنة، وفي تأويل معاني القرآن، ولكنها عجزت عن تحريف (نص) القرآن، ثم أعداء هذا الزمن . . . والكيد للمسلمين ودين الله، وقدروا على تزوير التاريخ . . . ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد — والظروف الظاهرية كلها مهياة له — لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ (الظلال)، قالت العلماء: لما وكل الله تعالى حفظ التوراة والإنجيل إلى أهل الكتاب في قوله ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أضاعوه فزادوا فيه ونقصوا منه، ولما تولى الله تعالى حفظ القرآن حفظه فلم يُزد فيه حرف ولم يُنقص منه حرف (أيسر التفاسير).

﴿سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] <sup>(2)</sup>.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93] <sup>(3)</sup>.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ. وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 87: 88].  
 ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 52—53].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنَ الْبَاقِ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 38—39] <sup>(4)</sup>.

وهنا أيضا لم يدرك المفسرون القدماء مغزى -تأويله- فصرفوا المعنى إلى أن المقصود هو ما سيأتيهم من الوعيد، رغم أن سياق الآيتين في سورة الأعراف وسورة يونس يتحدث عما جاء به القرآن من علم، فتسبق آية الأعراف (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ . . . ) الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52]، وكذلك آية يونس (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . . . ) تسبقها الآية:

<sup>(2)</sup> ولقد صدقهم الله وعده، فكشف لهم عن آياته في الآفاق خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد، وكشف لهم عن آياته في أنفسهم، وما يزال يكشف لهم في كل يوم عن جديد (الظلال)، سريهم دلالتنا بصحته في نواحي الأرض وفي أنفسهم أي وفي مجتمعهم (المفسر)، وما ظهر لحد الآن من كشوفات في الآفاق وفي الأنفس مما أشار إليه القرآن ما هو أعجب . . . شاهد قوي على صدق القرآن وأنه الحق من عند الله (أيسر التفاسير).

<sup>(3)</sup> آياته، أي: في أنفسكم وفي غيركم (أيسر التفاسير).

<sup>(4)</sup> لقد كذبوا بالوحي بالقرآن وصدق ما فيه من الوعد والوعيد: لقد كذبوا بهذا وليس لديهم من علم يقوم عليه التكذيب، ولما يأتيهم تأويله الواقعي بوقوعه (الظلال)، بل كذب هؤلاء المشركون وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائما أعداء ما جهلوا (الصفوة)، من غير أن يتدبروا ويعلموا ما فيه، فلم ينظروا فيه بأنفسهم، ولم يقفوا على تفسيره وبيان أحكامه بالرجوع إلى غيرهم (المنتخب)، بل كذبوا بشيء لم يعرفوه ولم يفهموا تأويله بعد (المفسر).



﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38]. أي أن الفهم الصحيح والتأويل السليم للقرآن وآيات إعجازه، سيأتي بعد حين يشاء الله.

ج — تحدي القرآن أن يأتي البشر — كل البشر أفراداً أو مجتمعين — أن يأتوا بما يضاهي البيان القرآني، وتتبأ بعجزهم جيلاً بعد جيل، كما في التحدي الذي جاءت به آية (يونس/ 38)، وفي هذه الآيات:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13].

﴿قُلْ لَنْ يَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: 88] <sup>(5)</sup>.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: 49].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 33، 34] <sup>(6)</sup>.

وقد كان: فلم يكتب بشر ما يضاهي في بلاغته — ولو ادعاءً — بلاغة القرآن، وقد تكفل علماء العربية والإسلام بدراسة النص القرآني وتحليله، ومقارنته بلغة اللسان العربي وآدابه في القديم والحديث، وبرهنوا على تميز الخطاب القرآني واستعصائه على المحاكاة، وأن كل سورة وكل عبارة وكل كلمة، بل كل حرف فيه، إنما صيغت لتعبر أدق تعبير وتؤثر أعمق تأثير في السمع والعقل والفؤاد. وما زالوا يستكشفون المزيد من أسرار البيان القرآني، ويبقى القرآن معجزة بلاغية ماثلة إلى آخر الزمان.

## 2/12 انتصار الدعوة:

<sup>(5)</sup> ظهيرا، أي عوناً ونصيراً.

<sup>(6)</sup> أم يقولون تقوله؟ : أي اختلق القرآن وكذبه من تلقاء نفسه (أيسر التفاسير).

- أ - تنبأ القرآن مقدماً بكل ما كان: من استمرار الدعوة الناشئة في أحلك الظروف وأقساها، وبحفظ الله تعالى نبيه من تأمر الكافرين على اغتياله، وفتح مكة ودخول الكعبة وتطهيرها من الأصنام، كما تبينها الآيات المتتالية الآتية:
- 1- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67] <sup>(7)</sup>.
- 2- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادِ قُلُوبِ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: 85 - 86] <sup>(8)</sup>.
- 3- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: 1 - 3] <sup>(9)</sup>.
- 4- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

وهذه الآية قد نزلت وقت أن كانت الجماعة المسلمة مستضعفة: في عمرة القضاء، التي اضطر فيها المسلمون إلى قبول شروط المشركين في صلح الحديبية، وفي مناسبة نزول هذه الآية:

\* (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبني أمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت الآية) (الحاكم والطبراني في الأوسط).

<sup>(7)</sup> حديث: (كان النبي يُحْرَسُ بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس، وقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله) (الترمذي).

<sup>(8)</sup> -لرادك إلى معاد- لرادك إلى الأرض التي اعتدتها، وهي مكة، أو من مصدر -عاد- (المفسر)، وعد من الله بفتح مكة (الصفوة)، وهو العودة إلى مكة . . . وإلى الجنة بعد وفاتك لأنك دخلتها ليلة عُجِرَ بك إلى السماء (أيسر التفاسير).

<sup>(9)</sup> نزلت بعد صلح الحديبية سنة ست من الهجرة وهو في طريقه عائد مع أصحابه إلى المدينة النبوية، وقد خالط أصحابه حزن وكآبة حيث صُدوا عن المسجد الحرام . . . (أيسر التفاسير).

5- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: 8 – 9].

6- ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

7- الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْقُضُونَ أُمُورَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36].

8- ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45].

وهذه الآية الأخيرة نزلت في مكة حيث لا مجال للحديث عن القتال واندحار المشركين وفرارهم.

ب — كما تنبأ بموت نفر من الكفار بعينهم على الكفر، وقد كان، ولم يكن ثمة ما يمنع إسلامهم، وقد أسلم من كانوا أشد منهم عداء للإسلام كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وخالد بن الوليد، فنزلت الآيات:

\* ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: 11 – 26]:

نزلت في الوليد بن المغيرة.

\* ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: 1 – 5]:

نزلت في أبي لهب وزوجه أم جميل العوراء.

\* ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 6، 7] <sup>(10)</sup>:

<sup>(10)</sup> في بعض الروايات أنها في النظر بن الحارث يشترى كتب أساطير الفرس ويجلس في طريق الداهيين إلى رسول الله ﷺ . . . ولكن النص أعم . . . إذا صح أنه وارد فيه . . . (الظلال)، وروي أن النظر بن الحارث كان يشترى المغنيات، فلا يظفر بأحد يريد

نزلت في النصر بن الحارث.

### 3/12 هزيمة الفرس:

ما جاء به القرآن من نبوءات تاريخية، هي من الغيب الذي لا يعلمه إلا خالق الكون القيوم سبحانه وتعالى، وقد تحقق نبوءة بعد الأخرى . من أشهر النبوءات اندحار الفرس أمام الروم في بضع سنين من نزول الآية:

﴿الْمَغْلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 1-6] <sup>(11)</sup>.

والبضع لغة: ما بين الثلاث والتسع، وقد كانت كل الدلائل تشير إلى العكس، أي إلى النصر النهائي للفرس. كما اقترن ذلك بنصر المسلمين في نفس الوقت يومئذ في غزوة بدر الكبرى.

### 4/12 فساد البيئة:

تنبأ القرآن الكريم بما سيصيب البيئة الأرضية من تدهور وفساد بفعل البشر، وأطماعهم وسوء استخدامهم لما أنعم الله عليهم في الأرض والموارد، وغفلتهم عن

الإسلام، إلا انطلق إلى قبيته المغنية، فيقول لنا : أطعميه واسقيه الخمر وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه. . . (الصفوة)، النصر بن الحارث الكلدي يشتري هو الحديث أي الغناء إذ كان يشتري الجوازي المغنيات ويفتح ناديا للهو والجون ويدعو الناس إلى ذلك ليصرفهم عن الإسلام حتى لا يجلسوا إلى نبيه ولا يقرأوا كتابه (أيسر التفاسير).

<sup>(11)</sup> الأولى انتصار الفرس في بلاد الشام بقيادة خسرو ابرويز أو خسرو الثاني، المعروف بكسرى، على الروم بقيادة هيراكليوس الصغير المعروف بهرقل عام 614م واستولى على أنطاكية ثم دمشق، ثم حاصروا بيت المقدس وأحرقوها ونهبوها وذبحوا، ودمروا كنيسة القيامة، ورد هرقل الكرة عليهم في معركة على أرض أرمينية عام 622م (الأول من الهجرة)، كان فاتحة انتصارات الروم (المنتخب)، وفي حديث رواه ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأهم أهل كتاب، وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت : ألم. غلبت الروم... (الآية) قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين. قال: صدق . قالوا: هل لك أن نقامرَكَ (قبل تحريم الزهانة) فبايعوه على أربع فلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، فشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ما بضع سنين عندهم، قالوا: دون العشر، قال: اذهب فرايدهم وازدد سنين في الأجل . قال: فما مضت الستين حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك (الظلال).

حمل أمانة عمارة الأرض وإصلاحها والتعاون على الخير، التي حملهم إياها الله سبحانه وتعالى، وهذا ما تتطرق به الآيات.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] <sup>(12)</sup>.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

الجمع بين البر والبحر يؤكد أن المقصود هو فساد البيئة، فلو ذكر البر فقط لربما فهم المقصود بأنه الفساد الناشئ عن الظلم والاستبداد والحروب؛ وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين من القدماء، ولكننا نتساءل: أي فساد يصيب البحار من جراء صراعات البشر، إن المعنى المباشر ظاهر ولا مجال فيه للتأويل.

في التنبؤ بأن الإنسان مهما بلغ علمه وزادت معرفته لن يكون — بغير هدى الله — أهلاً لمسئولية الحفاظ على نعم الله في الأرض قال تعالى أيضاً:  
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

## 5/12 علامات الساعة:

حدث المصطفى صلى الله عليه وسلم بما أعلمه به الروح الأمين مما سيحدث من إرهابات لقيام الساعة وعلامات لها، ومنها علامات صغرى تتوالى على امتداد الزمان حتى اقتراب القيامة؛ ثم علامات كبرى بين يدي الساعة لا تغني بعدها توبة، ولا ينفع إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل.

جاءت أحداث التاريخ وما وقعت به من بعض العلامات الصغرى — التي أنبأت بها الأحاديث المطهرة — برهاناً ساطعاً على صدق الرسول وصدق الرسالة، ولنتدبر هذه الأحاديث:

<sup>(12)</sup> قال البيضاوي: المراد بالفساد الجذب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات وكثرة المضار (الصفوة)، كالجذب والأمراض المحتاجة، وحوادث الغرق، وطغيان الأنهار، والزلازل، بما كسبت أيدي الناس من الذنوب (المفسر)، الحرق والقحط والآفات وكساد التجارة والغرق، بسبب جرائم وآثام الناس (المنتخب).

\* (إِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ فَانْتَظِرُوا السَّاعَةَ) (البخاري ومسلم).

\* (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَّاءَ، فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ) (أبو داود وابن ماجه).

\* (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُفْبِضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرَجُ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفْبِضَ ...، وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ) (البخاري).

\* (إِنَّ مِنْ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَاءُ، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ) (البخاري ومسلم).

\* (صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَّاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا) (مسلم وأحمد).

\* (مِنْ عِلَامَاتِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ تَشَبُّهُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالنِّسَاءِ بِالرِّجَالِ) (أبو نعيم في الحلية).

\* (أَنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ<sup>13</sup>، وَفُشُوَ التِّجَارَةُ حَتَّى تُعَيِّنَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطَعَ الْأَرْحَامُ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَكِتْمَانُ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورُ الْقَلَمِ) (أحمد).

\* (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ) (مسلم والترمذي وأبو داود).

### ولنقارن بوقائع التاريخ:

— أصبح العالم شئنا أو لم نشأ يتعامل بالربا، فالنظام النقدي العالمي المتشابك الذي ترتبط به كل دول العالم وتوجهه المؤسسات المالية الكبرى (التي يسيطر عليها اليهود) نظام ربوي، والنقد الورقي الذي تسير به كل معاملتنا له غطاء ذهبي غير مستقر؛ وإنما يتراوح صعودا وهبوطا مع أسعار العملات وتقلبات أسواق

<sup>13</sup> أن يخص إنسانا بالسلام بدلا من إفشائه.

الأوراق المالية؛ ومعنى ذلك أن القيمة الفعلية لأي مال تملكه يضاف إليها ربا أو يخسر منها يوما بعد يوم.

— الزنا ومعاقرة الخمر والمخدرات: نفشو كالوباء في كل المجتمعات؛ وأصبح الفن والإعلام العالمي لترويج هذه الشرور له الصوت الأعلى، بل كاد ينفرد بتوجيه عقل البشر في كل المجتمعات.

— قبض العلماء: أين هم في أسواق عكاظ الجاهلية المعاصرة ، التي ابتكرت وسائل للنشر والتأثير لا تتسع إلا للملحدين والمفسدين.

— قطع الأرحام: وقد تمزقت الأسر؛ ولم يعد لها وجود فعلي إلا في بعض المجتمعات التي لم يزل فيها بقية من دين.

— فشو التجارة: وقد أصبح العالم سوقا واحدا تتصل أسواقه المالية بالحاسبات والأقمار الصناعية، وتسيطر على تجارته الشركات متعددة الجنسيات التي توجه الصفقات والأسعار؛ وأيضا السياسات والحكومات.

— التطاول في البنيان: وقد وصلت ناطحات السحاب لمدى لم يكن يتخيله من جاء بالنبوة صلى الله عليه وسلم، وقاد هذا الاتجاه سكان القارة الأمريكية، الذين كان أسلافهم من المهاجرين من شتى البلاد الأوربية؛ ومن قاع مجتمعاتها واشتهروا لأجيال طويلة بأنهم رعاة البقر.

— تشبه الرجال بالنساء والعكس: أصبح سمة بارزة في الأمم التي تسيطر على شعوب الأرض، بل أصبح الشذوذ هنالك نظاماً للزواج الطبيعي ندا لندا.

— طائفة على الحق ظاهرة: فلم يندثر الإسلام رغم تطاول الزمان وتكالب الأعداء، بل قيض له في كل جيل من يحيي موات القلوب، ويبعث مدا جديدا للإسلام.

## 6/12 مشاهد القيامة:

أحداث القيامة من أمر الله تعالى لا يكشفها ولا يجلبها لوقتها إلا هو، وقد حذرت الآيات القرآنية وأندرت من أهوال ذلك اليوم، ووصفتها صفات تقرّبها إلى

أذهاننا، وتتفق مع كل ما يكشفه الله لعباده من معارف ومفاهيم؛ فيظل القرآن دائما صادقا معجزا.

تتطابق كثير من علامات الساعة مع ما ندركه عن الكون وطبيعته؛ مثل انشقاق الغلاف الجوي:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، انشقت: تصدعت، أو انفطاره:  
﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1]، وانفطرت: انشقت.

ومثل تكور النجوم الغازية عندما يتقدم بها العمر فتبرد وتنكمش، وتتحول إلى ما يعرف بالقزم الأبيض وهو ما لوحظ عمليا في الدراسات الفلكية، كما جاء في آيتين عن تكور الشمس وانكدار النجوم.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 1، 2] <sup>(14)</sup>.  
بينما تنفتت الكواكب الصلبة -تنتثر- عند اختلال النظام الكوني:  
﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 2] <sup>(15)</sup>.

وتفجير البحار كما في الآية:

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: 3] <sup>(16)</sup>.

وكشط الغلاف الجوي:

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11] <sup>(17)</sup>.

ومثل ضالة الحجم الحقيقي لمادة الكون بالنسبة لاتساعه، والتي انطلقت لتملأ الكون أجراما سماوية متباعدة؛ حتى تتجمع ثانية بأمر الله يوم القيامة:

<sup>(14)</sup> كورت الشمس: جمع ضوءها وصار كالكرة (الوسيط)، قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة تلف فتمحى، وقال قتادة: كورت ذهب ضوءها، وهو قول الفراء (اللسان)، قد يعني برودها وانطفاء شعلتها وانكماش ألسنتها الملتهبة، واستحالتها من غاز حرارته 12000 °... إلى حالة نجم مثل قشرة الأرض... قد يكون هذا، وقد يكون غيره (الظلال).

<sup>(15)</sup> نشر الشيء: رمى به متفرقا، وانتثر: تفرق (الوسيط).

<sup>(16)</sup> تفجير البحار: يحتمل غمرها للبابسة، كما يحتمل تفجير مائها إلى عنصريه الأكسجين والهيدروجين، فتتحول مياهها إلى هذين الغازين، كذلك يحتمل تفجير ذرات هذين الغازين (الصواب: الهيدروجين فقط) كما يقع في تفجير القنابل... والهيدروجينية اليوم، أو أن يكون هيئة أخرى غير ما يعرف البشر (الظلال).

<sup>(17)</sup> كشطه كشطا: أزاله عنه، يقال كشط الجلد عن الذبيحة (الوسيط)، وكشف الغطاء عن الشيء: قلعه ونزعه وكشفه عنه

(اللسان).



﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104] <sup>(18)</sup>.

أكد المولى جل وعلا استحالة معرفة وقت الساعة أو التنبؤ به، وهذه الاستحالة يؤكدتها العلم الحديث؛ بسبب واضح أشرنا إليه عند الحديث عن أبعاد الكون الذي يضم بلايين المجرات؛ أقربها إلى مجرتنا على بعد 700000 سنة ضوئية؛ بينما يقطع الضوء داخل مجرتنا وحدها 50000 سنة ليصل إلى حافتها (من المركز)، ومعنى ذلك ببساطة شديدة أن أعظم أجهزة الرصد على كوكب الأرض لا تستطيع أن ترى أو تكشف حدثًا كونيا ضخما داخل مجرتنا؛ إلا بعد سنين أو عشرات أو مئات أو آلاف السنين من وقوعه (فما بالك بما يحدث في مجرة بعيدة)، فإذا بدأت الأحداث الكونية الممهدة للقيامة بانفجار نجم أو نجوم، أو اصطدام أجرام سماوية بجسم من داخل المجرة أو خارجها (بما يخل بتوازن المجرة بما فيها مجموعتنا الشمسية)، فإننا لن ندرك أو نبصر الحدث في حينه وسنظل غافلين عنه دهورا حتى تقع الواقعة فعلا في أرضنا وتصيبنا أهوالها.

ما الذي يدرينا أن مقدمات الساعة لم تبدأ فعلا في مكان ما في أرجاء الكون الفسيح، ومن الذي يستطيع — علميا في ضوء هذا التحليل — أن ينكر احتمال أن تأتينا تداعياتها بغتة في أي لحظة، ألاست هذه آية كبرى على صدق وإعجاز القرآن الكريم الذي يؤكد مرارا استحالة التنبؤ بالقيامة، واستنثار الله تعالى بمعرفتها، وصدق الله العظيم:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: 15].  
﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: 18].

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17].

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1].

<sup>(18)</sup> طوى الشيء طيا: ضم بعضه على بعض، أو لف بعضه فوق بعض (الوسيط).

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: 31].

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 107].

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: 55].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: 66].  
﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: 40].  
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَازَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34].  
﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63].

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَلَنَّاكَ مَا مِينَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: 47].

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: 85].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: 42-44].

وصدق الله العظيم في كتابه المعجز الكريم.